

كلية الآداب والحضارة والعلوم الإسلامية

قسم التاريخ

السنة الثانية تاريخ عام

مقياس تاريخ حضارة المغرب الإسلامي والأندلس

الأستاذة صابرة خطيف

تتمة المحاضرات المقدمة:

المحاضرة الأولى: فتح الأندلس

المحاضرة الثانية: عصر الولاة بالمغرب

المحاضرة الثالثة: عصر الولاة بالأندلس

المحاضرة الرابعة: : الإمارات المستقلة بالمغرب

المحاضرة الخامسة: الدولة الأموية في الأندلس عصر الإمارة

قائمة المصادر والمراجع

المحاضرة الأولى

فتح الأندلس

أطلق لفظ الأندلس قبل الفتح الإسلامي على القسم الجنوبي من شبه الجزيرة الإيبيرية حيث استقرت قبائل الوندال الجرمانية التي أعطت اسمها لهذه المنطقة، ومنذ الفتح الإسلامي أصبح هذا اللفظ يتمدد أو يتقلص حسب امتداد أو تقلص حدود الدولة الإسلامية بدون تحديد جغرافي قار.

1- الظروف الممهّدة للفتح الإسلامي:

تم فتح الأندلس في قصيرة جدًا أي بين 92 و 95 وهذه السرعة في الفتح تعود لظروف متناقضة لدى الطرفين: طرف مسلم يملك قوة مادية تتمثل في قوة الدولة الأموية وأسطولها، وغلبة العنصر البربري ضمن الفاتحين، إضافة إلى ارتفاع الروح المعنوية بين مختلف عناصرهم خاصة بعد النجاحات المتتالية لهم في بلاد المغرب وطرف إسباني يعاني من تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وضعف الروح المعنوية في أوساط الجيش؛ فقد كانت إسبانيا تعاني من تدهور عام في الفترة الأخيرة من الحكم القوطي مما سهل على الفاتحين دخولها، إذ كان المجتمع الإسباني يعرف وجود نظام فيدرالي طبقي مكون من:

- **طبقة عليا** تشمل مالك والنبلاء ورجال الدين، فالحكم القوطي كان انتخابيا في الأصل، مما يسمح باختيار الحكام الأصالح، لكن هذا أدى إلى وجود تنافس مستمر بين النبلاء من القوط للوصول إلى العرش، وبالتالي تدبير المؤمرات مما أضعف قوة الدولة، وكان نفوذ هذه الطبقة غير محدود، وممتلكاتها الواسعة معفاة من الضرائب. وضمن هذه الطبقة جماعة رجال الدين التي تمتلك هي أيضا نفوذا غير محدود لمكانتها الدينية، وكان لها تدخل في الشؤون السياسية بمباركتها للملك الجديد، ولها أيضا أملاك واسعة ومعفاة من الضرائب.

- **طبقة وسطى**: تهتم بالنشاطات التجارية والصناعية ولكنها مثقلة بالضرائب، ومن ضمن هذه الطبقة الجماعات اليهودية التي تمارس التجارة والأعمال الحرة والعمل في دواوين الحكومة، ولكنها مكروهة بسبب اختلاف العقيدة وممارسة الأعمال الربوية.

- **طبقة دنيا**: تمثل عبيد الأرض الذين يشغلون في مزارع النبلاء والكنيسة، وتنتقل ملكيتهم بانتقال

ملكية الأرض؛ وضمن هذه الطبقة جماعات من الفلاحين الأحرار البسطاء. وكانت هذه الطبقة الدنيا أكثر عددا من جميع عناصر الطبقتين السابقتين. أما الجيش فكان مؤلفا من عناصر مضطهدة في المجتمع باستثناء القيادة التي تنتمي إلى طبقة النبلاء حتى أصبح العبيد وأشباه العديد في الجيش أكثر من الأحرار، قال المستشرق الهولندي دوزي: يمكن القول أن الدفاع عن الدولة أصبح موكولا إلى أولئك الذين كانوا يؤثرون الاتفاق مع العدو على الدفاع عن مضطهديهم".

وقد أصبح الوضع الاجتماعي أكثر سوء في نهاية القرن الأول الهجري بسبب مجاعة توالى على البلاد من سنة 88 إلى 90هـ "حتى مات نصف أهلها أو أكثرهم" دون أن يعفى الناس من دفع الضرائب، وهذا ما زاد في اتساع الهوة مع الحكام.

أما الحالة السياسية قبيل الفتح، عرفت فيه إسبانيا حالة سيئة، فقد عمل حكام هذه الفترة على تحويل الملك الانتخابي إلى ملك وراثي، مما أثار ضدهم هيئتي النبلاء والأساقفة، ودبرّت محاولات انقلابية، ولما نجح القائد رذيق (rodrigo) في أخذ العرش انقسم الرأي العامّ والجيش بين الولاء له والولاء للملك المخلوع (akhila) هذا زيادة على غضب اليهود على الدولة التي قررت سنة 694 تأديبهم بتهمة التآمر على الدولة (مع يهود المغرب والاستنجد بالعرب)، فقررت مصادرة أملاكهم وفصل أبنائهم عنهم لاستعبادهم وتربيتهم على النصرانية.

هكذا ظهرت إسبانيا مفككة اجتماعيا وسياسيا في الوقت الذي ظهر المغرب متماسكا تحت راية الدولة الإسلامية، لكن كيف كانت المبادرة من أجل الفتح.

هنالك الرواية الإسلامية التي تجعل السبب المباشر للفتح على العموم هو رغبة أوليات الغماري حاكم الجزيرة الخضراء وسبته في الانتقام من الملك رذيق لسبب شخصي فبعث إلى موسى أو طارق وشجعه على فتح الأندلس. وهنالك رواية أخرى تذكرها المصادر الإسبانية ملخصها أن الملك أخيلا القوطي لما عزل عن عرشه لصالح رذيق ذهب أنصاره إلى حليفه بوليان طالبين مساعدته، وكانت سبته ملجأ لكثير من العناصر الساخطة على المالك الجديد فوجههم بوليا إلى موسى بن نصير بالقيروان حيث تم الاتفاق على التعاون ضد رذيق باعتباره مغتصبا للحكم، وربما رضى المتعاونون مع الفاتحين بالاستفادة من استرجاع ممتلكاتهم التي فقدوها خلال حكم المالك المذكور. وهنالك اختلاف حول وضعية بوليان، فيعتبره البعض

تابعاً لبيزنطة لا لملك القوط، ونظراً لبعدها وعزلتها رأى أن يستظل بحماية مالك القوط باسبانيا، لكن أغلب الروايات الإسبانية تتحدث عن بوليان بأنه قريب من الأسرة الملكية التي وقع الانقلاب عليها. فاتفق معه أنصار الحكم القديم على التحالف مع العرب ضد رذريق لاسترجاع ملكهم.

2-مراحل الفتح:

-المرحلة الاستكشافية:

عندما تأكد لدى ابن نصير الانقسام الداخلي باسبانيا وإمكانية دعم المعارضة للجيش الإسلامي مباشرة أو يخذلان الجيش القوطي، أرسل إلى الخليفة الأموي بدمشق الوليد بن عبد الملك يستشيريه في فتح إسبانيا "فأشار عليه الوليد أن يجتربها بالسرايا ولا يغرر بالمسلمين"، ومن المحتمل أن سرية أولى تمت على يد جيش بوليان للتأكد من انقطاع كل علاقة له مع ملك القوط، ثم وجه طارق سرية من أربعمئة رجل بقيادة القائد كريف نزلت بالموضع الذي حمل اسمه منذئذ، فتم التأكد من ضعف مقاومة القط، حيث وصلت السرية إلى الجزيرة الخضراء وعادت بالغنائم، وتقرر عندئذ الانتقال للمرحلة الثانية.

-العبور وهزيمة ملك القوط في معركة لكة (منطقة شذونة آخر رمضان 92).

بعث ابن نصير مولاه طارق في سبعة آلاف رجل أكثرهم من البربر والموالي من أجل عبور المضيق،.وهناك مسألة أخرى تتعلق بالمراكب المستعملة للعبور، فالمصادر الشائعة تذكر استعمال سفن لتجار سبتة سواء في المرحلة الاستكشافية أو مرحلة الفتح، مع أن الدولة الأموية كانت في هذا الوقت تملك أسطولا تضرب به سواحل جزر البحر المتوسط

لا تذكر المصادر حدوث معركة بين طارق والقوط عند نزوله بالجبل الذي حمل اسمه وذلك في رجب سنة 92هـ، وبعد أن استولى على الجبل قام بتحصينه، لكن ربما حدث بعد نزوله من الجبل نحو الجزيرة الخضراء أول اصطدم مع جيش من القوط قبل أن يتمكن من فتح الجزيرة، فأصبحت قاعدة للاتصال مع المغرب معززة بمركز آخر هو طريف، وهذا لضمان خط الإمدادات وخط الرجعة أيضا، قال ابن الأثير: "ولما بلغ رذريق غزو طارق بلاده، عظم ذلك عليه وكان غائبا في غزاته، فرجع منها وطارق قد دخل بلاده، فجمع له جمعا بلغ مائة ألف فلما بلغ طارق الخبر كتب إلى موسى يستمدّه...فبعث إليه بخمسة آلاف،

فتكامل المسلمون اثني عشر ألفا ومعهم بوليات بدتهم على عورة البلاد...".

بعد إحداث القواعد العسكرية على ساحل المضيق انطلق طارق نحو الداخل ليواجه ملك القوط الزاحف نحوه، وكانت المعركة الفاصلة عند وادي لكه في منطقة شذونة في رمضان 92 مع اختلاف في مدة أيام المعركة وتحديد مكانها والاختلاف حول نهاية الملك رذريق، إلا أن أغلبية المصادر تذكر نهايته في هذه المعركة وانتصار المسلمين انتصارا ساحقا، أما ما دار بعد هذا من معارك فكانت عبارة عن عمليات تصفية استمرت حوالي ثلاث سنوات مما يبين انهيار المقاومة بعد معركة شذونة.

-إتمام عمليات الفتح (92-95)

بعد معارك منطقة شذونة الفاصلة تراجعت فلول القوط نحو مدينة استجة ففتحها طارق بعد معركة شديدة خارجها، ثم وزع الجيش إلى سريا توجهت نحو أهم مدن الجنوب الشرقي (غرناطة، مالقة، قرطبة، تدمير) بينما تحرك هو بالقوات الرئيسية نحو طليطلة، وفي هذه الفترة تدخل ابن نصير بقوات إضافية.

إن الأمم قد تداعت من كل ناحية فالغوت الغوت" فوصل موسى بأسطوله وبقوات بلغت ثمانية عشر ألفا من العرب والبربر في صيف 93هـ ففتح شذونة ثم إشبيلية بعد حصار دام أشهر وأنزل بها اليهود، ثم تحرك مباشرة نحو ماردة ففتحها بعد معارك قاسية دامت أشهر واستعمل فيها دبابة ليستعين المقاتلون على نقب سور المدينة، وتمّ الفتح صلحا (خر رمضان 94، ثم التقى بطارق قرب طليطلة، حيث قضيا بها فصل الشتاء، وأرسل موسى ابنه عبد العزيز لفتح الجهة الشرقية بما فيها منطقة مرسية التي اعتبر فتحها صلحا مقابل الجزية، وكذا فتح سرقسطة وبرشلونة أو ما أصبح يسمى فيما بعد بالثغر الأعلى.

ثم توجهت القوات الإسلامية لفتح الشمال حيث أطلت على الساحل الشمالي (البحر الأخضر/البحر المحيط، إلا أن المثلث الجبلي في الشمال الغربي لم يمكن فتحه لتركيز المقاومة المسيحية فيه ومناعته الطبيعية، وأصبح فيما بعد نواة حركة اسبانية لـ "استرداد" الأرض التي وقعت بيد المسلمين ويظهر أن موسى وطارق تجاوزا جبال البرنات (البرنيس) في اتجاه الشمال الشرقي حيث كانت تمتد مملكة القوط.

لكن جاء الأوامر من الخليفة بعودة القائدين موسى وطارق إلى دمشق فغادرا الأندلس في ذي الحجة

عام 95هـ.

3- نتائج الفتح بالنسبة للطرف الإسباني:

نظرا لسوء الأحوال التي كان عليها الإسبان قبل الفتح الإسلامي فإنه شعروا بكون المسلمين منقدين لهم من سطوة القوط، خاصة وأنهم احتفظوا بحريتهم الدينية، وأما ما كان يحدث أحيانا من نزاع سياسي فلم يكن يمسّ مصالح الإسبان.

فمقابل الأمن والعدل والحرية الدينية لم يعد الإسبان نصارى أو يهود يدفعون للدولة غير قدر مالي محدود جزية على سلعهم أو خراجا على الأرض الذي تملكوا الكثير منها بعد أن كانوا في الغالب مجرد عمال زراعيين أو عبيد فيها لدى الإقطاعيين ورجال الكنيسة؛ لكن يختلف قدر الجزية أو الخراج حسب طريقة فتح المنطقة، فالتى فتحت صلحا، بل يقع الاتفاق مع هذه على تحديد القدر المدفوع، والمثال الذي احتفظت به بعض المصادر هو ما وقع من اتفاق بين عبد العزيز بن موسوي وتدمير أمير منطقة مرسية

أما "النصارى الذين كانوا في المعقل المنيع والجال الشاخنة أي الأرض الشمال فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداة الجزية (أي الخراج) في أرض النمرة وأرض الزرع".

وعلى العموم تحسنت أحوال إسبان في ظل الحكم الإسلامي فقد امتد المؤرخ الإنجليزي جوزيف مالك كيب إنصاف بعض المؤرخين الغربيين لتاريخ العرب بإسبانيا وتحدث عن الأقليات الدينية في العالم الإسلامي فقال: "كلهم كانوا يعيشون بسلام وتسامح، والخراج القليل الذي كان يفرض على غير المسلمين كان في الحقيقة مددا لبيت المال ولم يكن يقصد التعالي عليهم وإهانتهم". هذا مع العلم أن المسلمين كانوا يؤدّون مقابل ذلك زكوات وأعشار ويبدلون أنفسهم في حماية الدّميّين باعتبارهم مسؤولين عنهم.

نتائج الفتح بالنسبة للطرف الإسلامي

- يمكن القول أن دولة الخلافة الإسلامية وصلت في نهاية القرن الأول الهجري إلى أقصى اتساع لها، فبلغت غربا إلى البحر المحيط (الأطلسي) وجبال البرينيه، وشرقا إلى حدود بلاد الصين وإلى بلاد السند (وهي الجزء الغربي من بلاد الهند) أي أصبحت أوسع دولة متصلة الأجزاء عرفها التاريخ، أما الإسلام فقد تم انتشاره خلال عمليات الفتح وبعده بشكل تدريجي.

-نتائج اقتصادية:

بالنسبة للنتائج العاجلة تجمع المصادر على الغنائم الضخمة التي نتجت عن الفتح واستفاد منها كل من الفاتحين وبيت المال، حيث وصل قسم كبير منها إلى مركز الخلافة في دمشق، لكن النتائج المهمة هي التي حدثت على المدى اللاحق، بحيث ساعدت الفتوح على انتعاش الحركة الاقتصادية سواء فيما يتعلق بالنشاط الزراعي نتيجة إلغاء نظام الإقطاع القديم، وتقليص الضرائب، وتوزيع الأرض على الأهالي والفاحين، كما ساعدت على تنشيط الحركة التجارية التي استفادت من مزايا الحكم الإسلامي بتقليص الضرائب، وتوزيع الأرض على الأعيان والفاحين، كما ساعدت على تنشيط الحركة التجارية التي استفادت من مزايا الحكم الإسلامي بتقليص الضرائب وتوحيدها، إضافة إلى الأمن والعدل، وانعدام الحواجز الجوكية بين بلدان واسعة رغم ما سيحدث من تجزئة سياسية، والاستفادة من مدخرات الهيئات المنهارة (دول، إقطاع، كنائس) خصوصا الذهب لتحويله إلى عملة، ووفرة المنتجين والمستهلكين في العالم الإسلامي، ودور الوساطة التجارية لشعوب البلاد الإسلامية مع بقية العالم، وأخذت إيجابيات الحركة التجارية تظهر في العالم الإسلامي منذ القرن الثاني الهجري، وكانت إحدى مظاهر هذا النشاط هي ظهور المدن خاصة على الخطوط التجارية.

-نتائج اجتماعية.

فقد ساعد اتساع الدولة الإسلامية على حدوث حركة بشرية امتزاج بشري) بين أجزائها، بحيث انتقلت أسر عربية كثيرة إلى المناطق المفتوحة شرقا وكذا إلى إفريقية والأندلس، وتزامن حدوث الفتوحات الكبرى مع ظهور العصبي بين القيسية وحدثت الفتوحات الكبرى مع ظهور الصراع العصبي بين القيسية واليمينية قرب مركز الخلافة، فكان هذا مشجعا على الانتقال إلى هوامش الدولة خراسان وإفريقية والأندلس واستفادت الأسر العربية من عملية إعادة توزيع الأراضي تشجيعا لها على الاستقرار، خاصة وأن الدولة أصبحت لها أراضي واسعة نتيجة الفياء الذي حصلت عليه من جراء الحروب منها أراضي الإقطاع التي كانت بيد رجال الحكم السابقين وقادة الجند وبعض الكنائس...

المحاضرة الثانية

عصر الولاية بالمغرب

1- السياسة العامة للولاية

كان الولاية المشاركة يتميزون بالتعصب لطائفتهم القيسية أو اليمينية مما كان يخلق صراعا بين العصبيتين، كما كانوا يبذلون جهدهم في جمع الأموال لإرضاء شهواتهم واكتساب الأنصار ولتلبية شهوات الخلفاء.

سياسة الولاية نحو العرب

نلاحظ أن أول ولاية الغرب الإسلامي بعد ابن نصير وهو محمد بن يزيد (97-99) القرشي بالولاء نكلّ آل موسى بن نصير (اليمينيين) تنفيذا لسياسة الخليفة، قال ابن عذار "استقرّ بأحسن سيرة، ثم وصله الأمر بأخذ عبد الله بن موسى بن نصير. وتعذّبه واستئصال أموال بني موسى.

ثم هدأت الأوضاع مؤقتا أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز وواليه على إفريقية إسماعيل بن عبيد الله ابن أبي المهاجر (100-102) حيث عينه "علي حربها وخراجها وصدقاتها، فكان "خير أمير وخير وال، وما زال حريضا على دعاء البربر للإسلام حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه وأمره بإسقاط الحرية على من أسلم من البربر وتحرير من استرق من نساءهم، كما أمره بإقرار القرى في يد غنّامها بعد أخذ الخمس؟ وهذا يتعلق بالأرض المفتوحة عنوة .

وبعد موت الخليفة عمر جاء وال جديد هو يزيد ابن أبي مسلم (101-102) وهو من موالي الحجاج الثقفي (أي أنّه قيسي بالولاء) فحاول تطبيق سياسة سيده في إفريقية حين غرم الله عبد الله بن موسى وأخذ موالي أبيه من البربر وجعلهم حرسه، ولكي يتميز الحرس من غيرهم قرّر أن يصنع كما تصنع الروم بأن يشم "في يد الرجل اليميني اسمه وفي اليسرى حرسى" فقتلوه قبل تنفيذ هذه الخطة واتهم عبد الله بن موسى بتدبير عملية اغتياله، فورد الأمر من الخليفة إلى الوالي الجديد بشر بن صفوان بقتل عبد الله بن موسى.

وهكذا ارتفع شأن اليمينية في عهد الوالي بشر بن صفوان الكلبي (102-109) وهو من اليمينيين، ومع ذلك وصله الأمر بتعقب آل موسى بتهمة التحريض على قتل الوالي ابن أبي مسلم، بل أمره لخليفة

بقتل عبد الله بن موسى كما سبق الذكر، وتتبع أموال موسى ابن نصير وعذب عمّاله، ثم ارتفعت مكانة القيسية من جديد أيام ولاية الخليفة هشام بن عبد الملك مثل عبيدة السلمى القيسي الذي أخذ عمّال بشر وأصحابه فحسبهم وأغرمهم" ومثال عبيدة الله بين الحبحاب مولى بن سلول فتابع التنكيل بمن بقى من آل موسى وأشياعهم إلا أن سياسة مصادرة أملاك الخصوم كانت تتبع أيضا في الشرق عندما تعظم ثورة بعض الأشخاص لتنافس ثروة الأمراء أو الخلفاء.

ومع ابتداء الخلافة العباسية انتقل الصراع بين العرب فيما بينهم إلى ما بينهم وبين عناصر الجيش الخراساني الفارسي لتزايد امتيازاته في الدولة الجديدة عسكريا واقتصاديا.

رغم هذا الاتجاه نحو الخصوم في الداخل فإن العمليات البحرية تواصلت ضد جزر البحر المتوسط الخاضعة للبيزنطيين خاصة صقلية وذلك لإرهاب العدو ومنعه من مفاجأة السواحل الإسلامية في الغرب، فقد يبلغ عدد الغزوات البحرية في الثلث الأول من القرن الثاني حوالي عشرين غزوة.

سياسة الولاة نحو البربر

تحدثنا الروايات عن صنفين من الولاة بعد نهاية الفتح، صنف نادر مثل والي الخليفة عمر بن عبد العزيز وهو إسماعيل حفيد أبي المهاجر الذي تقول عنه أن "مازال حريصا على دعاء البربر للإسلام حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه" وان الخليفة عمر أمره بإسقاط الجزية عمّن أسلم من البربر وتحرير من استرق من نسائهم، كما أنه كان مسؤولا إداريا وماليا وعسكريا تجنبا لظلم عمّال الجباية. إلا أن ولايته كانت قصيرة بسبب قصر مدة الخليفة عمر.

ففتح المجال لولاة تصفهم الروايات بسوء السيرة وبالانحراف والظلم، ومن هؤلاء يزيد بن أبي مسلم (101-102 هـ) الذي فرض الجزية على مسلمي البربر كما فعل مولاه الحجاج الثقفي في ولايته بالشرق، واتخذ حرسا من موالي آل ابن نصير وقرّر تمييزهم بوسم أسمائهم ومهمتهم في أيديهم على غرار طريقة الروم، والمبرر كما قال: "ليعرفوا بذلك من بين الناس، فإذا وقفوا على أحد أسرع لما أمرت به" وإذا كانت هذه الظاهرة تبدو تنظيمية فإن هؤلاء اعتبروها إهانة لهم حيث قالوا "جعلنا بمنزلة النصارى فقتلوه واتهم في تدبير عملية الاغتيال عبد الله بن موسى بن نصير، فكلف الوالي اللاحق بشر بن صفوان بقتله.

وفي عهد ولاية عبيد الله بن الحبحاب (116-123) وجّه نائبه حبيب الفعري على رأس سرية لغزو السوس الأقصى وأرض السودان فعاد بذهب وسي عظيم، أمّا نائبه في بلاد طنجة عمر المرادي فتصفه المصادر بأنه "تعدى" في الصدقات والعشر، وأراد تخميس البربر ورغم أنهم فيء المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وغنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام" فكان قتله سنة 121 بداية لثورة البربر التي شملت الغرب الإسلامي عامة.

ملاحظات حول الفترة

- إن المصادر المتحدثة عن هذه الفترة متأخرة عنها، وعندما نتحدث عن سلوك الولاة مع البربر تميل إلى التعميم، ربما لإظهار قبح الحكم الأموي المنتهي (خاصة المصادر الشيعية والخارجية) أو بسبب التعصب للبربر (المصادر المغربية) وتصبح معلوماتها عن السياسة الاقتصادية للولاة نادرة مع اختلاف وجهات نظر الرواة.

- كان الولاة يرتبطون بجهاز عسكري وإداري يدعّمهم ويدعّمونه ولذا من الممكن أن يتستر بعض الخلفاء على تعسف نوابهم في الأقاليم بل ربّما كانوا يستعملون أموال بيت المال لكسب الأنصار واللجوء إلى التفرغ واستئصال الأموال وهذا من مظاهر السياسية الأموية في المشرق والمغرب على السواء في هذه الفترة على الخصوص، وهناك بعض الإشارات عن تورّط بعض الخلفاء في المسؤولية عن سياسة ولائهم، فالخليفة يزيد بن عبد الملك (101-105) وصف بالجشع هو وولائه، فقد قال عن بعضهم "ما مثلي ومثل الحجّاج (وإلى العراق والشرق) وابن أبي مسلم (وإلى الغرب الإسلامي) بعده إلا كرحل ضاع منه درهم فوحد ديناراً" وعندما تولى الخلافة أخوه هشام (105-125) أقرّ الوالي على المغرب بشر بن صفوان بعد أن وصل إليه بالأموال والهدايا (مع التحفظ في موضوع الهدايا) "وكان الخلفاء بالمشرق يستحبّون طرائف المغرب... فلما أقصى الأمر لابن الحبحاب تكلف لهم أو كلفوه أكثر ممّا كان فاضطرّ على التعسف وسوء السيرة".

ثم عندما تولى الخلافة المنصور العباسي (136-158) طلب من والي إفريقية عبد الرحمن الفهري (127-137) مثلما كان يحصل عليه بنو أمية فأجابه الوالي "إن إفريقية اليوم إسلامية كلها وقد انقطع السبي منها والمال" فهده المنصور وربما كان الولاة يتمتعون بنفوذ كبير في ولاياتهم خصوصا في الفترة الأخيرة من الدولة الأموية لانشغال الخلفاء بمشاكلهم القريبة من مركز الدولة، ثم انشغال العباسيين في

البداية بتوطيد أركان دولتهم، فهناك من سمّاهم عمر بن عبد العزيز بـ "عمال السوء" وكان الحجاج والي العراق وفارس من هؤلاء حيث فرض هو وعمّاله ومنهم بقايا الأرسقراطية الفارسية ضرائب جديدة بأسماء مختلفة على المسلمين الجدد في العراق وفارس وخراسان مثل هذا السلوك فردي في بعض الحالات ولكن لا يلغي مسؤولية الخلفاء أيضا هذه السياسة كانت من أهم أسباب ثورة الشيعة الزيدية بالكوفة في العراق بقيادة زيد بن علي سنة 121، ثم ثورة خارجية بنفس المدينة سنة 130، كما كانت سببا في ثورة الصغد (في آسيا الوسطى) وكذا ثورة البربر سنة 121. وهذا التشابه في سياسة الدولة وردّ الفعل عليها يبيّن أن هذه الثورات لم تكن ضد الإسلام أو العنصر العربي كما يرى المستشرقون ولكنها ضد فساد الحكم والانحراف عن المبادئ الإسلامية التي أقيمت الأهلالي بإتباع الدين الجديد.

2-ثورات البربر:

يمكن تلخيص أسباب الثورات إضافة إلى البعد الجغرافي عن مركز الدولة في عاملين أساسيين: سياسة السلطة الحاكمة، وانتشار مبادئ الخوارج بين البربر.

بالنسبة لسياسة السلطة الحاكمة تجلّى دورها السلبي في الضغط الجبائي والاستخفاف بكرامة البربر (السي) ودعم التعصب العرقي بشكل مباشر أو غير مباشر على حساب العنصر المحلي (في تقسيم الغنائم والعطاءات) وما كان يرافق ذلك من امتيازات للمقرّبين (إقطاعات) ومن صراعات مكشوفة على السلطة بين العرب حتى إنّ بعضهم حاولت توريث الحكم في أبنائه والانفصال عن مركز الخلافة (مثلا: عبد العزيز بن موسى مستغلا مكانة أبيه في الأندلس وعبد الرحمن القهري 127-137 مستغلا مكانة جده عقبه، وستظهر محاولة حكم الأسر الولائية كالمهلبين والأغالبة، كما أن تدخل الجند في الصراع السياسي كان يعرقل الاستقرار ويتيح الفرصة لاستمرار البربر وعجز الولاة أمامها

العامل الثاني هو فشل ثورات الخوارج في المشرق وانتقال مبادئهم ورجال منهم إلى المغرب شاركوا فيما يبدو في عمليات الفتوح، ولقيت مبادئهم ترحيبا من طرف عدد كبير من البربر لإلحاحها على تطبيق العدالة والمساواة دون تمييز بين الأعراق، رغم اختلاف الفرق الخارجية فيما بينها بين الاعتدال، ويظهر أن التوافق بين العرب والبربر حول هذه المبادئ ساعدته الوضعية الاجتماعية حيث انتشرت هذه المبادئ خاصة بين البربر البدو كما كانت منتشرة بين العرب البدو، وكلا الطرفين ينظر إلى الإسلام في بساطته دون

تأويلات ويتفاني في الدفاع عن مبادئه، وأهمّ الفرق في هذه الفترة فرقنا الإباضية والصّفرية الأولى أكثر اعتدالا والثانية وسط بين الاعتدال والتطرّف وقد ساعدا اعتدال المذهبيين النّسبي على انتشارهما، فكان انتشار المذهب الصّفري في المغرب الأقصى خاصة وبين قبائل منطقة تلمسان(قبائل مغيلة)، وتكّز انتشار الإباضية في إقليم طرابلس وخاصة في جبل نفوسة وتسرب إلى بوادي المغرب الأوسط.

ومن الملاحظ أنّ موقف البربر لم يكن ضد الحلفاء، وإنما ضد فساد الولاة، فبعد قتلهم والي إفريقية يزيد بن أبي مسلم سنة 102 بعثوا إلى الخليفة بدمشق يزيد بن عبد الملك " إنا لم نخلع يدا من طاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى الله والمسلمون فقتلناه، وأعدنا عاملك (قبله) " .

وبالنسبة لثورة البربر سنة 122 يسجّل ابن الأثير دوافع الثورة مشيرا إلى دور الخوارج وإلى سياسة الولاة وإلى سياسة الولاة، مبيّنا أن الثورة لم تنطق من دوافع عرقية ضد العنصر العربي المستأثر بالسلطة في قوله: " لم يزل أهل إفريقية من أطوع أهل البلدان وأسمعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك حتى دبّ إليهم أهل العراق فاستشاروهم فشقّوا العصا...وكانوا يقولون لا نخالف الأئمة بما تجني العمّال، فقالوا لهم إنّما يعمل هؤلاء بأمر أولئك، فقالوا لهم حتى نخبرهم فخرج ميسرة في بضعة وعشرين رجلا فقدموا على (الخليفة)هشام فلم يؤذن لهم، فدخلوا على الأبرش (حاجبه) فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين أنّ أميرنا يغزو بنا وبجنده فإذا غنمنا نفلهم دوننا...وإذا حاصرنا مدينة قدّمنا وأخرهم...ثم إنّهم (العمال) عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا ييقرون بطونها عن سخاها يطلبون الفراء الأبيض لأمر المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد فاحتملنا ذلك ثم إنّهم سامونا أن يأخذوا كلّ جميلة في بنائنا فقلنا لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ونحن مسلمون فأحببنا أن نعلم...رأي أمير المؤمنين هذا أم لا؟ فطال عليهم المقام ونفذت نفقاتهم، اكتبوا أسماءهم ودفعوها إلى وزراءه وقالوا: إن سأل عنّا أمير المؤمنين فأخبروه، ثمّ رجعوا إلى إفريقية فخرجوا على عامل هشام فقتلوه واستولوا على إفريقية وبلغ الخبر هشام فسأل عن النّعر...فعرّف أسماءهم فإذا هم الذين صنعوا ذلك".

اندلعت ثورة الصّفرية في المغرب قبل الجهات الأخرى وذلك سنة 121 أو 122، وتزعم التحالف البربري الصّفري البربري في المغرب الأقصى كتلتان إحداهما الكتلة الزناتية (مكائسة، مدغرة...) والثانية تجمع برغواطة) وكان على رأس هذا التحالف ميسرة المدغري الذي تعلم مبادئ المذهب في القيروان متسترا بحفرة السقاية في سوق المدينة ، ولا ندري ما هي مكانته الاجتماعية قبل أن يقدّمه الصّفرية عليهم وإن كان

التفقه في الدين كافيا في نظرهم لذلك؛ فتلقى البيعة من الجماعات الصفرية وأصبح يوصف في المصادر بمقدّم الصفرية عليهم، وأمير الغرب أي المغرب. فتحرك الثوار نحو طنجة وقتلوا عاملها عمر بن عبيد الله المرادي نائب الحبحاب والي إفريقية، ثم تحركوا جنوبا واصطدموا مع عامل السوس (وسط المغرب وجنوب) لكن يبدو أنهم انقسموا على أنفسهم لأسباب غير معلومة وقتلوا زعيمهم ميسرة حيث أنكروا عليه "سوء سيرته وتغيّره عمّا كانوا بايعوه عليه" أو بايعوا إماما آخر هو خالد بن حميد الزناتي الذي قادهم في موقعة مع جيش إفريقية قرب طنجة على الأرجح في موقعة الأشراف" التي قتل فيها "حمّاة العرب وفرسانها وحماها وأبطالها" فاضطر الخليفة هشام إلى عزل الوالي ابن حبحاب وتعويضه بالوالي كلثوم بن عياض ومعه جيش ضخم تتكوّن نواته من فرسان الشام، فلم يحدث الانسجام بينه وبين عناصر الجيش المقيم في إفريقية وكاد القتال يندلع بين الطرفين، ثم اصطدم هذا الجيش بالصفرية على مقربة من سبو سنة 123 (معركة بقدورة) انهزم فيها العرب شر هزيمة قتل ثلثهم وأسر ثلث آخر وفرّ الباقون من الشاميين إلى الأندلس وغيرهم إلى إفريقية فغضب الخليفة هشام لهذه الهزيمة المنكرة وعيّن واليا جديدا هو حنظلة بن صفوان الكلبي سنة 124 وبعثه بقوات جديدة لعلاج الوضع الخطير ففي فترة ثورة المغرب الأقصى بزعامة زناتة ثارت صفرية إفريقية خاصة قبائل هوارة ونفزاوة بقيادة إمامها عبد الواحد الهواري واستولت على مدينة تونس تدعمها صفرية منطقة تلمسان بزعامة أبي قرّة المغيلي (أو اليفرني حسب العبر) غير أن الوالي حنظلة استطاع أن يحرز النصر على الثوار في معركتي القرن والأصنام بأحواز القيروان سنة 124 حتى "قيل إنه ما علم في الأرض مقتلة كانت أعظم منها" وهو النصر الذي أوقف سقوط إفريقية من يد الأمويين بعد سقوط المغرب الأقصى.

وبموت الخليفة هشام سنة 125 دخلت الدولة الأموية مرحلة لاحتضار ثم انشغلت الدولة العباسية الناشئة مكانها بمشاكل تأسيسها، وفي هذه الفترة استغلّت أسرة الفهريين هذا الوضع في الشرق وهزيمة البربر الأخيرة في إفريقية ومكانة جدّه عقبة فحاولت تأسيس ملك بالغرب الإسلامي، فعبد الرحمن بن حبيب الفهري (127-137) فرض على نفسه على إفريقية بالقوة وجعل خلفاء المشرق أمام الأمر الواقع، وعيّن على الأندلس سنة 129 واحد من أسرته هو يوسف الفهري استمرّ إلى أن استولى عبد الرحمن الداخلي الأموي على أمرها سنة 138؛ بل إنّ عبد الرحمن الفهري عيّن ابنه يوسف وليّا للعهد بعد أن خلع دعوة العباسيين الشكلية، وقد استطاع أن يدفع بقواته نحو تلمسان ويهزم أميرها الصفري أبا قرّة المغيلي سنة 135

"وداخل جميع أهل المغرب خوفه والحذر من سطوته" بل تجاوز هذا إلى تجديد الحركات حو جزر البحر المتوسط الغربي، غير أنه قتل سنة 139. فوقع التنافس داخل أسرته ممّا سهّل على قبيلة ورفجومة الصفرية (من نفرواة) دخول القيروان سنة 139، فأساءوا إلى أهلها.

خاضت جيوش الفهري ونائبه على طرابلس معارك مع إباضية نفوسة، إذا كانت طرابلس هدفاً أولاً لها، فتمكّن عاملها من هزيمة الإباضية وقتل زعيمهم عبد الله بن مسعود التجيبي، غير أنّ الاقتتال أحياناً داخل الإباضية كان يساعد على فشل محاولاتهم ضد طرابلس، وعندما دخل ورفجومة القيروان سنة 139 كان زعيم الإباضية هو أبو الخطاب المعافري، فاستنجد به أهل القيروان ضدهم وكان قد استولى على طرابلس فقصد القيروان وطرد منها ورفجومة، وعين عليها عامله عبد الرحمن بن رستم (140-144).

هذا الضغط على الصفرية من قبل ولاية إفريقية خاصة ربّما هو الذي أقتنعهم بالابتعاد سياسياً عن إفريقية فظهرت إمارة بني مدرار بسجلماسة سنة 140، وتلقى أبو قرّة المغيلي الصغرى بتلمسان سنة 148 البيعة عن صفرية إفريقية وبعض جهات المغرب الأقصى .

وكانت برغواطة قد أعلنت إمارتها سنة 127 بعد أن شاركت في ثورة الخوارج الصفرية دون أن تلتزم فيما يبدو بمبادئهم. وسبقتها إمارة ثورة الخوارج الصفرية دون أن تلتزم فيما يبدو بمبادئهم. وسبقتها إمارة نكور في أقصى الشمال الجبلي من المغرب الأقصى ولكن في إطار سني منذ 123 على الأرجح.

وتأسست في الأندلس الإمارة الأموية من جديد سنة 138، أي أنّ الغرب الإسلامي استكمل انفصاله عن الخلافة المشرقية حوالي سنة 140 قبل أن تسترجع الخلافة العباسية نفوذاً شكلياً في إفريقية.

ولهذا فإن المنصور العباسي بعد أن استقرت أمور الخلافة له وجه إلى إفريقية الوالي محمد بن الأشعث الخزاعي (144-148) بقوات مهمة من عناصر عربية وفارسية، فضبط ابن الأشعث إفريقية وأعمالها، وأمّن في كلّ من خالفه من البربر بالقتل، فخافوه وأذعنوا له بالطاعة" وحصّن مدينة القيروان غير أنّ تزايد نفوذ العنصر الخراساني والفارسي في جيشه على حساب العنصر العربي كان من أهم أسباب ثورة الجند عليه وعلى من بعده، فقد ذهب ضحيتها ابن الأشعث ثم خلفه الأغلب التميمي (150هـ) .

ويظهر أن اهتمام المنصور بمواجهة الخوارج هو الذي أدّى إلى محاولة فريدة للتحالف الصفري

الإباضي لمحاصرة جيش الوالي عمر بن حفص هزار مرد (150-155) في إحدى قرى الزّاب (طبنة) ولكنه سرعان ما انحلّ، فتوجّه الإباضيون وحدهم إلى القيروان بزعامة إمامهم أبي حاتم الملوّزي الهواري، وطال حصاره للمدينة حتى أكل أهلها "دوابهم وسنانيرهم وكلابهم، وأخذ الناس في أكل لحوم الخيل" ثم دخل المحاصرون المدينة سنة 154 قبل وصول قوات جديدة من الشرق.

هذه الوضعية اضطرّت المنصور إلى تجربة توارث الولاية في إفريقية في أسرة المهنيين ما بين 155 و 179 وكان أشهرهم هو يزيد بن حاتم (155-171) حفيد المهلب قاهر الخوارج الأزارقة في الشرق أيام الأمويين، وقد هدأت الأحوال في عهده، قال ابن عذاري "لم تنزل البلاد هادئة إلى أن ثارت عليه البربر فأوقع بهم وله فيهم ملاحم مشهورة، ولخص القيرواني هذا بقوله "هرب البربر في كلّ ناحية وخافوا خوفا شديدا" وأدّى اشتداده على الإباضيين وقتله إمامهم الملوّزي إلى انتقال هذه الإمامة إلى عبد الرحمن بن رستم والاستقرار بتاهرت منذ سنة 161 بعيدا عن طريق الحملات العباسية.

وأما بقي من ثورات الخوارج بإفريقية فقد أصبح يقضي عليها بسرعة وبعنف، في هذا الوقت الذي ضعفت فيه الثورات البربرية تجدد النزاع بين قاد الجند (الفارسي والعربي) والثورة على الولاية التي أسقطت المهلبيين، فدفعت مشكلة الجند وانفصال معظم الغرب الإسلامي الخليفة الرشيد إلى جعل ولاية إفريقية تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي تحت أسرة بني الأغلّب منذ سنة 184 للحفاظ على النفوذ الشكلي للعباسيين وإشغال الإمارات القائمة بالمنطقة عن التحرك نحو الشرق، سواء الخوارج المرتبطون بشبكة من إخوانهم قرب مركز الخلافة، أو الأدارسة أو الأمويين في الأندلس الذين ينازعون العباسيين في شرعية حكمهم .

نتائج الثورات

- تضرر الأحوال الاقتصادية في إفريقية حيث تقلّصت المساحة المزروعة وضعفت التجارة، ويبدو أن هذه الوضعية كانت مستمرة على الأقل منذ حروب الفتح، ثم تعسّف بعض الولاية في السياسة الجبائية، ومن دلائل سوء الحالة الاقتصادية أن بعض ولاية إفريقية للعباسيين ظلوا يعتمدون على إعانة سنوية من مصر، أما ما ظهر من إصلاحات في فترات الهدوء، المؤقت فقد اختصّت به مدينة القيروان في مجال تنظيم أسواقها، وساءت الأحوال بصورة أكثر بدخول الجند في ميدان الفتن حتى عجز بعض الولاية عن دفع

رواتب جندهم (ولاية العكي 181-183) بينما كانت الإمارات الأخرى تعرف رخاء هاماً، وانعكست ظروف هذه الحروب على سكان المدن الكبرى خاصة القيروان التي كانت تتعرض للمجاعات أوقات الحصار خاصة.

ومن الناحية البشرية دفعت هذه الظروف المحلية مع تزايد اعتماد العباسيين على العنصر الفارسي إلى قدوم هذا العنصر إلى إفريقية فأصبحت بها عناصر عربية وفارسية إلى جانب العنصر المحلي، كما أصبح للعنصر الفارسي بالخصوص مكان الصدارة في الميدان العسكري وتمتع قاداته بالإقطاعات.

ومن الناحية السياسية: كانت أهم نتائج هذه الظروف هي تأكيد انفصال الغرب الإسلامي عن الخلافة المشرقية رغم الحالة الخاصة لإفريقية، ولكن ليس في إطار دولة موحدة، وإنما في إطار مجموعة من الإمارات المستقلة عن بعضها مع العلم أنّ ما هو غرب بلاد إفريقية لم يخضع للمشرق منذ اندلاع الثورات في السنوات العشرينية ضد فساد الحكم الأموي وكانت أولى الكيانات المنفصلة قائمة على أساس المذهب الخارجي.

عصر الولاية بالأندلس (95- 138) هـ

ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير 95 هـ

يبدأ عصر الولاية في الأندلس بعد عودة موسى بن نصير وطارق بن زياد إلى دمشق، بلغ عدد ولاية الأندلس حوالي عشرين واليا، تولوا الحكم طوال فترة بلغت تقريبا اثنين وأربعين عاما، شارك عبد العزيز موسى بن نصير قبل تعيينه واليا على الأندلس أباه في إخماد الثورة التي قام بها سكان إشبيلية ومدينة لبلة عام 94 هـ بعد أن فتحها المسلمون، ليتخذ من مدينة إشبيلية قاعدة لملكه بناء على اختيار مسبق من أبيه، حتى يبقى اتصاله مستمرا مع بلاد المغرب الإسلامي، خاصة بعد سيطرة المسلمين على خطوط المواصلات بين بلاد المغرب والأندلس.

تركزت المقاومة الاسبانية في عهده في كورة تدمير*، سار إليها عبد العزيز بن موسى مع جنوده سنة 95 هـ ، وبعد قتال مع الملك تدمير، قرر هذا الأخير مفاوضة المسلمين على الصلح، مقابل حصوله على شروط مرضية، وأصبحت كورة تدمير كلها صلحا ليس فيها شيء من العنوة

أهملت المصادر التاريخية الحديث عن الفتوحات التي قام بها عبد العزيز بن موسى بن نصير رغم أهميتها في تثبيت حكم المسلمين في الأندلس، إذ تجمع المصادر على أنه أقام يفتح مدائن الأندلس، فضبط سلطاتها، وضم نشرها، وسد ثغورها، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة مما كان قد بقي على أبيه موسى.

ولاية أيوب بن حبيب اللخمي 97 هـ

يرتبط هذا الوالي برابطة القرابة بموسى بن نصير، فهو ابن أخته، يذكر بعض المؤرخين أنه تأمر مع قادة الجند في الأندلس من أجل تدبير مقتل عبد العزيز بن موسى، حتى يتم التخلص منه، ويتولى هو أمر الأندلس من بعده، وحينما طال أمر الأندلس وهي بلا وال، قرر أهلها وقادة جندها تولية أيوب بن حبيب أمر الأندلس، فتم ذلك سنة 97 هـ كان أول عمل قام به هو نقل العاصمة من مدينة اشبيلية إلى مدينة قرطبة بموافقة جماعة المسلمين في الأندلس، ويعد اختيار المسلمين لمدينة قرطبة عاصمة قرارا موفقا، وذلك بسبب موقعها المتوسط، وقربها من منازل العرب شرقا وجنوبا في الأندلس،

من أعماله بنائه لقلعة حصينة في جنوبي مدينة سرقسطة، شمالي الأندلس سميت باسمه، فأصبحت تعرف بقلعة أيوب. وقد اتسمت فترة ولايته بالقصر، والتي لم تتجاوز فترة الستة أشهر، ثم عزل عنها، لهذا لا نجد الحديث عن فتوحاته في المصادر الإسلامية.

ولاية الحر بن عبد الرحمن الثقفي: 97-100هـ

قدم الأندلس سنة 97هـ، ولا توجد اشارات معينة في المصادر حول الأعمال التي قام بها في الأندلس، رغم ما اتسم به من القسوة والشدّة، كانت له محاولات لاسترجاع الحصون التي كان المسلمون قد حاولوا فتحها في شمال الأندلس، إلا أنه اضطر للعودة لإخماد بعض الثورات والفتن التي اندلعت في الأندلس، مما دفع بالخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز إلى عزله وتعيين وال آخر على الأندلس.

ولاية السمع بن مالك الخولاني: 100هـ

تولى السمع ولاية الأندلس في رمضان سنة 100هـ، استقر في قرطبة، عندها كتب إليه الخليفة عمر بن عبد العزيز. رضي الله تعالى عنه. يخبره بحال الأندلس من حيث قوة المسلمين فيها وعددهم، وان يكتب إليه بصفة الأندلس من حيث طبيعتها وأنها وما فيها من عمران، فكتب إليه الوالي يذكره ويخبره بان المسلمين قد كثروا في الأندلس، وانتشروا في مدنها وأن لا خوف عليهم، فاقنع الخليفة بقول الوالي وزاد اهتمامه بها ففصلها عن ولاية المغرب الإسلامي، فجعلها ولاية مستقلة، وأمره أن يقيم العدل وإتباع الرفق في إدارته لشؤون الولاية.

كما طلب منه الخليفة أن "يُخمس أرض الأندلس" ويفرق بين الأراضي التي فتحت عنوة، والتي فتحت صلحا، ومسألة تخميس الأراضي مهمة جدا بالنسبة للسياسة الداخلية لأي والي، خاصة بعد أن نعلم أن موارد الولاية الاقتصادية يعتمد على خمس الأموال التي كانت تأتي من الأراضي والفتوحات، فأول أمر قام به الوالي هو التمييز بين الأراضي التي فتحت عنوة من تلك التي فتحت صلح، وهنا يكمن سؤال مهم؟ لماذا هذا الاهتمام بتخميس الأراضي وما الفائدة؟ والجواب إن الفائدة من تخميس الأرض هو للإنفاق من تلك الأموال على أمور الولاية ومصالح المسلمين وإخراج الفتوحات، فخرج الوالي خمس الأموال من الأراضي التي فتحت عنوة، أما الأربعة أخماس الباقية من تلك الأموال فإنها تقسم بين الجند الذين فتحوها.

ومن الأمور المهمة والتي تحسب للوالي السماح هو ذلك العمل الحضاري الذي قام به، وهو إصلاح قنطرة قرطبة التي أكلها الدهر ولم يبق منها إلا اليسير ولم تعد تربط جانبي نهر قرطبة الكبير، فكتب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - يستأذنه في إعادة بناءها، وهنا تتضح لنا شخصية الوالي المسلم الذي جاء ليكون أداة لبناء مجتمع حضاري، والسبب في الاستئذان؟ لأنها تحتاج إلى أموال كبيرة لإصلاحها، وهذه الأموال تؤخذ من أموال بيت مال المسلمين القادمة من خمس الأرض أو من الغنائم، فقام بأعمالها بالاعتماد على سور قرطبة حيث أخذ الكثير من أحجارها للبناء، أما لماذا لم يُبقِ الوالي على سور المدينة؟ لأنه أحس أن قرطبة لا تحتاج إلى سور خاصة بعد أن تقوت شوكة المسلمين آنذاك

بعد أن اطمئن الوالي الخولاني إلى الأمور المالية والاجتماعية والعمرانية في البلاد اتجهت أنظاره إلى نشر الدين الإسلامي، خاصة بعد أن جاءته أوامر الخليفة يزيد بن عبد الملك (101 - 105هـ) من دمشق بضرورة الخروج للجهاد في سبيل الله تعالى، فخرج سنة 102هـ بالصائفة ليغزو مناطق جنوب فرنسا، فسار بجيش كبير نحو سرقسطة*، وعبر جبال البرتات وسيطر على مدينة أربونة عاصمة سبتمانيا.

مع وصوله إليها فرض عليها حصاراً شديداً، تمكن من فتحها ودخولها والسيطرة عليها، وأقام فيها حكومة شرعية ووزع الأراضي بين الفاتحين، وفرض الجزية على النصارى - متبعاً فرض الجزية على من لم يدخل الإسلام من المشركين فيدخل في ذمة المسلمين بدفع الجزية، ثم زحف بجيشه الفاتح نحو الغرب لغزو مدينة طولوشة (Toulouse)، عاصمة أكتيانيا في محاولة لفتح تلك المدينة، فأحاطها المسلمون بالخنادق والمنجنيقات وجميع أدوات الحرب، حتى أوشك أهلها على الاستسلام، لولا عودة اودو - حاكم تلك المناطق التي كان خارجاً منها لطلب العون لصد الجيش الإسلامي عند فتحه لمدينة أربونة السابقة الذكر، فعاد لقتال الجيش الإسلامي بعد أن جمع العدة والعدد لمجابهته، وتقدم نحوه، فعلم الوالي الخولاني بأمره، فهياً الجيش للخروج وقتال جيش اودو، فتلاقى الجيشان على مقربة من طولوشة في معركة سميت بمعركة البلوط، وكانت غير متكافئة فنشب القتال في معركة هائلة سالت فيها دماء غزيرة، وكثر القتل في الجيشين، وأبدى المسلمون برغم قلتهم بسالة وصبراً في القتال، وكان ذلك في التاسع من ذي الحجة سنة 102هـ. على اثر مقتل الوالي السماح اختار الجيش احد القادة وهو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ليعود بالجيش نحو الجنوب .

ولاية عبد الرحمن الغافقي: (112 - 114هـ)

بعد العملية الجهادية التي قام بها السمح بن مالك الخولاني توقفت الحملات العسكرية، بينما اضطرت أحوال الفاتحين في الأندلس إلى أن تولى أمرها عبد الرحمن الغافقي، فقرر غزو إمارة أكتيان من جهتها الغربية، فاضطرت لطلب دعم مملكة الميروفنجيين الإفرنج رغم العداء بينهما، و هكذا بعدما فتح المسلمون أكبر مدن أكتيان وهي بَرْدِيل (بورديو) توجهوا نحو نهر اللوار الفاصل بين إمارة أكتيان ومملكة الميروفنجيين، فكانت هناك معركة بلاط الشهداء (تور بواتي) في بداية رمضان 114 هـ، التي انتهت بهزيمة المسلمين وتحولت العمليات بعدها إلى حملات متقطعة قبل أن تتوقف نهائيا.

العوامل المتحكمة في مسار الفتح في الأندلس

هناك الظروف الطبيعية عن بيئة العربي أو البربري التي لا يحسن عليها القتال، و هي ظروف تجعل الغنائم . بالنسبة لمن يقاتلون من أجلها. ضعيفة بالمقارنة مع المشاق التي يتحملونها غير أن هناك عاملا أساسيا وهو ضعف دولة الخلافة في المشرق مع بعدها، والانقسامات الداخلية بالأندلس بين المسلمين، وهناك سبب آخر ناتج عن معركة بلاط الشهداء نفسها وهي رغبة وعزم شارل مارتل الحاجب الميروفنجي بطل المعركة من أجل ضم إمارة أكتيان وتوسيع رقعة نفوذها إلى جنوب البرنيس وهي الدولة الكارولنجية.

. العلاقة بين الفاتحين واللاحقين :تميز الوضع الداخلي بالأندلس بعد الفتح بضعف الاستقرار عموما، ومن العوامل المساعدة على ذلك: البعد عن مركز الخلافة الأموية، ودخولها في مرحلة الضعف، وكذا ظهور النزاعات بالأندلس بين العناصر الفاتحة في الأندلس والوافدة عليها بعد الفتح خاصة حول توزيع الفيء من الأرض.

وقد تركز الصراع في المرحلة الأولى بين القبائل اليمينية النسب و القبائل القيسية، وكانت الأولى تمثل أكثرية العرب الفاتحين ومنهم آل ابن نصير، فقد أصبحت حكومة دمشق متضايقة من ثقل القبائل اليمينية تبعدها إلى الأطراف، ولما لم يستطع الخلفاء الأواخر إحداث التوازن بين القبائل، فإن كلا منهم اتخذ موقفا خاصا مستميلا القبائل التي أبعدها سلفه، و هذه الوضعية انعكست على الولايات، فكلما تولى وال جديد نكل

وبأنصاره مع ما كان يرافق ذلك من مصادرة أمواله و أملاكه، بدأت هذه العملية باغتيال عبد العزيز بن نصير سنة 97 هـ (و كان أبوه تركه واليا على الأندلس عند خروجه منها) ربما حدث ذلك خوفا من استقلاله انتقاما لما تعرض له أبوه من إهانة من طرف الخليفة، خاصة و أن آل موسى أصبحت لهم ثروة هامة

وموالي وأنصار كثيرون في الغرب الإسلامي، وكان الذي بدأ باضطهاد آل موسى النائب الجديد الحر بن عبد الرحمن الثقفي (و هو قيسي) (97 - 100هـ) منقذا سياسة والي إفريقية محمد بن يزيد القرشي (بالولاء)، ثم عزله الخليفة عمر بن عبد العزيز بالوالي السمع بن مالك الخولاني وهو يمضي (100-102 هـ) وقد عرف بسيرته الحسنة محاولا إحداث التوازن بين مختلف العناصر، ومنقذا سياسة عمر الإصلاحية خاصة بمراجعة الوضعية القانونية للأرض، فقد كان ابن نصير " قسم وخمس بعض البلاد وأعجلته حركته منها (إلى الشرق).." فلما تولى السمع بن مالك الخولاني أمره الخليفة عمر " أن يخمس ما بقي منها ففعل ذلك، كما أقر هذا الخليفة الخراج على الأرض المفتوحة مهما كان مالكاها حيث كان الفاتحون قبل هذا لا يدفعون عنها غير الأعشار

لما ولي عمر بن عبد العزيز خصص للأندلس عاملا مستقلا عن إفريقية هو السمع بن مالك الخولاني " فزودها في جند سوى جندها الأول فأراد النزول معهم [الفاحين] في أموالهم ومشاركتهم فيما في أيديهم"، وشكوا ذلك إلى الخليفة فهددوا بالخروج من الأندلس " فمنعهم من ذلك وأنسهم، وعقد لهم وأشهد في عقدهم على إقرارهم في أموالهم، وأقطع الواردين إقطاعات غيرها ، وقال : هذه الثغور الهندية لولا إقطاعات عمر بن الخطاب«رضي الله عنه» الجند فيها لم يشدها فكيف بتلك الناحية" ، ثم إنه لم يتم ربما لوفاته، وبعبارة أخرى " كتب إلى السمع أن يقطع الجند الذين دخلوا معه من الأخماس"، أي أنه لا يمس الفيء الذي انتقل إلى الفاتحين وإنما يعطي للوافدين الجدد من نصيب الدولة وهو الخمس .

و يمكن أن نستنتج من اضطراب الروايات أن الأراضي الأندلسية أصبحت فيما يبدو على الشكل

التالي:

1. أراض فتح تحت صلحا بقيت بيد أهلها يدفعون عنها خراجا محددًا لبيت المال، ويظهر أنها هي

أغلب أراضي إسبانيا.

2. أراض فتح أغلبها عنوة وقع تخميسه أي منح أربعة أخماس منها للفاتحين عرب وبربر يدفعون عنها الأعرشار الشرعية وترك الخمس الباقي للدولة تتصرف فيه بما تراه مناسبا بمنحه لمن يستغله مقابل دفع خراج تحده الدولة.

3. أراض مفتوحة عنوة لم يتم تخميسها وإنما وقعت استيلاءات عليها و تملكها من وثب عليها مستغلين عدم الاستقرار الحاصل في أواخر الدولة الأموية في الثلث الأول من القرن الثاني.

4. بالنسبة للوافدين الجدد من الشاميين خاصة لم يستفيدوا من ملكية الأرض، فخصصت لهم نسب من مجابي المناطق التي أقروا بها، أي الاستفادة من نصيب مما كان مخصصا لبيت المال.

-نتائج الفتح بالنسبة للطرف الإسباني-

نظرا لسوء الأحوال التي كان عليها الإسبان قبل الفتح الإسلامي، فإنهم شعروا بكون المسلمين منقذين لهم من سطوة القوط، خاصة و إنهم احتفظوا بحريتهم الدينية، و أما ما كان يحدث أحيانا من نزاع سياسي فلم يكن يمسّ مصالح الإسبان.

فمقابل الأمن والعدل والحرية الدينية لم يعد الإسبان نصارى أو يهود يدفعون للدولة غير قدر مالي محدود جزية على سلعهم أو خراجا على الأرض الذي تملكوا الكثير منها بعد أن كانوا في الغالب مجرد عمال زراعيين أو عبيد فيها لدى الإقطاعيين ورجال الكنيسة؛ لكن يختلف قدر الجزية أو الخراج حسب طريقة فتح المنطقة، فالتى فتحت عنوة يفرض على أهلها خراج أكبر من التي فتحت صلحا، بل يقع الاتفاق مع هذه على تحديد القدر المدفوع.

أما " النصارى الذين كانوا في المعازل المنيعه والجبال الشاخحة (أي أرض الشمال) فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية... (أي الخراج) في أرض الثمرة و أرض الزرع"، وعلى العموم فقد تحسنت أحوال الإسبان في ظل الحكم الإسلامي.

-نتائج الفتح بالنسبة للطرف الإسلامي-

يمكن القول أن دولة الخلافة الإسلامية وصلت في نهاية القرن الأول الهجري إلى أقصى اتساع لها، فبلغت غربا إلى البحر المحيط (الأطلسي) وجبال البرانس، وشرقا إلى حدود بلاد الصين وإلى بلاد السند)

وهي الجزء الغربي من بلاد الهند)، أي أصبحت أوسع دولة متصلة الأجزاء عرفها التاريخ؛ أما الإسلام فقد تم انتشاره خلال عمليات الفتح وبعده بشكل تدريجي.

وعلى المستوى المادي تجمع المصادر على الغنائم الضخمة التي نتجت عن الفتح واستفاد منها كل من الفاتحين وبيت المال حيث وصل قسم كبير منها إلى مركز الخلافة في دمشق، لكن النتائج المهمة هي التي حدثت على المدى اللاحق، بحيث ساعدت الفتح على انتعاش الحركة الاقتصادية سواء فيما يتعلق بالنشاط الزراعي نتيجة إلغاء نظام الإقطاع القديم، وتقليص الضرائب، وتوزيع الأرض على الأهالي والفاحين، كما ساعدت على تنشيط الحركة التجارية التي استفادت من مزايا الحكم الإسلامي بتقليص الضرائب وتوحيدها، إضافة إلى الأمن و العدل، وانعدام الحواجز الجمركية بين البلدان واسعة رغم ما سيحدث من تجزئة سياسية، والاستفادة من مدخرات الأنظمة المنهارة (دول، إقطاع، كنائس) خصوصا الذهب لتحويله إلى عملة، ووفرة المنتجين والمستهلكين في العالم الإسلامي، ودور الوساطة التجارية لشعوب البلاد الإسلامية مع بقية العالم، وأخذت إيجابيات الحركة التجارية تظهر في العالم الإسلامي منذ القرن الثاني الهجري، وكانت إحدى أهم مظاهر هذا النشاط هي ظهور المدن خاصة على الخطوط التجارية.

- فقد ساعد اتساع الدولة الإسلامية على حدوث حوكمة بشرية (امتزاج بشري) بين أجزائها، بحيث انتقلت أسر عربية كثيرة إلى المناطق المفتوحة شرقا وكذا إلى إفريقية و الأندلس، وتزامن حدوث الفتوحات الكبرى مع ظهور الصراع العصبي بين القيسية واليمينية قرب مركز الخلافة، فكان هذا مشجعا على الانتقال إلى هوامش الدولة: خراسان وإفريقية والأندلس، واستفادت الأسر العربية من عملية إعادة توزيع الأراضي تشجيعا لها على الاستقرار، خاصة وأن الدولة أصبحت لها أراضي واسعة نتيجة الفياء الذي حصلت عليه من جراء الحروب منها أراضي الإقطاع التي كانت بيد رجال الحلم السابقين وقادة الجند وبعض الكنائس

ثورات البربر في الأندلس في عصر الولاة:

مع استمرار الفتوحات لبلاد الأندلس استقرت الكثير من القبائل البربرية في مواطن متفرقة من الأندلس، ولقد اعتبر البربر أنفسهم الفاتحين الأصليين لها فاستقروا هناك وكان تواجههم لأول مرة يخضع لعامل الصدفة لا غير كذلك الأمر بالنسبة للعرب وان كان البربر أكثر اطلاعا ومعرفة بالمنطقة فاختاروا على

هذا الأساس أفضل المناطق للاستقرار فيها لكن الغالبية منهم استقروا في المناطق الجبلية بحكم توافقها مع سكنهم الأولى في شمال إفريقيا، فالبربري معروف عنه سكنى الجبال، وقد هيئت له هذه المناطق الوعرة مواقع حصينة شجعت على الثورات ضد الحكام العرب خاصة منهم الشامية القيسية الذين كانوا يرون أن الدولة دولتهم فتعالوا على غيرهم باعتبارهم أهل حرب وسياسة وحكم، أما العرب اليمينية فكانوا يعيدون عن هذه النزعة لأنهم كانوا قبل كل شيء أهل معاش وأرزاق وعمل، وبهذا وطد العرب أقدامهم بالأندلس واستبدوا بالحكم جاعلين من البربر شعبا محكوما ليس لهم نصيبا في الحكم والإدارة وبالمقابل لم يكن البربر ينظرون إلى أنفسهم بأقل من العرب دينا أو كفاية أو مساهمة في الجهاد.

ساعد على تأجيج هذه الضغينة ما كان يجري في بلاد المغرب بكل أقطاره من انتشار واسع لمذاهب الخوارج النازحة من العراق وبلاد المشرق والتي لاقت رواجا بينهم لأنها تقوم على مبدأ عدم حصر الخلافة على بيت معين تركها لاختيار الأمة ، ولهذا وجد البربر أن مذهب الخوارج يناسب وضعهم السياسي والاجتماعي فاتخذوه عنوانا للمعارضة ضد أي سياسة تفرض عليهم.

لهذا بات من الطبيعي أن يعجل البربر بثوراتهم بوقوع ثورة بربرية سنة 112 هـ- بقيادة منوسة البربري هذا الأخير لاحظ الظلم الذي يتعرض له البربر شمال إفريقيا فعقد اتفاقا مع الإفرنج من أجل الترويج لتمرد مضاد للعرب في الأندلس، لكنه منى بالهزيمة على يد الوالي العربي آنذاك الهيثم بن عبيد الجنابي (111-112هـ) ، وبهذا تم القضاء على ثورة البربر بالإقليم الشمالي من الأندلس وتأخير قيام البربر بأعمال ثورية أخرى وبالرغم من ذلك فقد ظل الحكم العربي في الأندلس يعاني من عدم الاستقرار، خاصة وأن نفرا من دعاة الثورة البربرية المغربية خف إلى الأندلس ليثير بربرها على عربها ولم يكن البربر في الجزيرة الأندلسية مطمئنين إلى العرب لأنهم استبدوا بالأمر كله مع أن معظم الفتح يعود لهم وحدهم .

عندها بادر بربر الأندلس إلى الثورة مرة أخرى لما بلغهم ثورة بربر طنجة ونجاحهم في غزوة الأشراف فوثبوا على واليهم عقبة بن الحجاج (116 - 122هـ) وعزلوه وولوا عليهم عبد الملك ابن قطن الفهري(122 - 123هـ) وذلك سنة 123هـ

لكن الأوضاع ساءت في عهده إذ ثار بربر جليقية Galicia واسترقه والمدائن التي خلف الدروب فأطردهم عربها منها لكثرتهم هناك ، وانصرفوا عن سرقسطة لكونهم أقلية إلى جانب كثرة العرب بها.

وكرر فعل لهذا التوتر الداخلي ، قام هشام بن عبد الملك 105 - 125هـ بتجهيز جيش كبير، انضم إليه من جند الشام حوالي 6 آلاف، ومن قنصرية 3 آلاف، ليلتحق به حوالي 27 ألف من الشاميين، ثم انضم إليهم 3 آلاف من مصر، ودارت رحى الحرب بين الفريقين أسفرت نتائجهما عن انتصار البربر وهزيمة الجيش الشامي، وذلك سنة 123 هـ ، وأتبعوهم بالقتل والأسر فثلت الجيش مقتول وثلث منهزم، وثلث مأسور، ولجأت فلوله المنهزمة بقيادة بلج بن بشر إلى شاطبة، وسبب اتخاذها للاعتصام كونها مدينة حصينة من الصعب اختراقها، إلا عن طريق البحر، فضلا على ذلك أراد بلج أن يؤمن سبيل نجدته، وانتقاله إلى الأندلس من المكان الطبيعي، للعبور إلى الجهة الثانية من مضيق ال وبالفعل فما إن ضيق عليهم البربر الخناق ، حتى سارعوا بالاستغاثة بوالي الأندلس " ابن هذين " وحشدوا من جليقة وإسترقة وماردة ، وطلبيرة فأقبلوا في جيش لا يحصه عدد يريدون قتال " عبد الملك " وجنوده .

ولقد اعتبر أحد الباحثين الثورة البربرية بأنها حوكة واسعة وجيدة التنظيم نسبياً ومما يثبت ذلك انتخاب البربر لزعيم أعطوه جميع السلطات، فأخذت حركتهم هويتها الخاصة مستقلة عن الحوكة التي قامت في شمال إفريقية .

ورغم التحضيرات العسكرية التي أعدها البربر ، إلا أنهم منيوا بالهزيمة الساحقة عند وادي سليط Guazalete من أحواز طليطلة سنة 124هـ - ، وبعد القضاء على ثورة البربر ظهر البربر ظهر النزاع بين الفاتحين بربرا وعربا، البلديين والوافدين الجدد خاصة من أبناء الشام، قال أولئك لهؤلاء " بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا" وكان الداخلون مع موسى يعرفون بالبلديين و الداخلون مع بلج بن بشر سنة 125 هـ يعرفون بالشاميين، ولما وقع النزاع بين هؤلاء والبلديين فرقهم الوالي أبو الخطار (وهو بمني) في كور الأندلس " وأقطعهم ثلث أموال أهل الذمة الباقين من الروم " ووزعهم أجنادا على المدن: " أهل دمشق بالبيرة، وأهل الأردن برية، وأهل فلسطين بشذونة، و أهل حمص بإشبيلية و أهل قنسرين ببيان وأهل مصر بياجة وقطيعا منهم بتدمير، وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة من العجم، و بقي البلديون و البربر على غنائمهم لم ينقصهم شيء " غير أن ميله للعصبية اليمينية أفضل سياسة التوازن حيث اندلع الصراع بين اليمينية و القيسية، وساءت أحوال الأندلس بالقحط الشديد و المجاعة و الوباء بين سنتي 131- . 136 هـ، وفي هذا الوقت انهارت الدولة الأموية بالمشرق، مما أعطى الفرصة لنصارى الشمال أن يتفوقوا عليهم، ويوسعوا مجال فتوحاتهم نتيجة ضعف السلطة الإسلامية وتنامي خلافتهم العنصرية فيما بينهم.

المحاضرة الرابعة

الإمارات المستقلة في المغرب

بعد القرن الثاني الهجري عصر تحول في تاريخ المغرب، بظهور كيانات سياسية منفصلة عن بعضها عن البعض ومتباينة مذهبيا، ويواجه الدارس لتاريخ هذه الفترة عدة مشاكل منها ندرة المادة التاريخية بحيث نتعامل في العديد من الأحداث مع رواية واحدة، ولا يعني تداولها بين مؤرخين متأخرين صحتها، كما نواجه تضارب في التواريخ بل وفي تقديم بعض المواضيع ذات الأهمية كقيام ومسار إمارة من الإمارات كون أغلب هذه الإمارات غير سني جعلها تقابل بالتجاهل حينما والتحقيق حينما آخر في الكتابات المشرقية المعاصرة

أولا: إمارة بني صالح في نكور (123-401 هـ)

نسبة لصالح بن منصور الحميري الذي استقر بشمال المغرب الأقصى خلال الفتح زمن الوليد بن عبد الملك داعيا للإسلام فلقب بالعبد الصالح أسلم على يديه الكثير من أهل المنطقة، وارتدوا ثم خضعوا لسلطانه مرة أخرى. ترك ولدين المعتصم وتوفى بعد مدة يسيرة من حكمه وإدريس الذي حكم بعد أخيه لمدة ثلاث سنوات، وبعد وفاة هذا الأخير خلفه ابنه إدريس وإليه ينسب الاستقرار بنكور وبناء مدينتها ومسجدها الذي أخذ أهميته المعمارية لبنائه على طراز مسجد الإسكندرية بمختلف مرافقه.

قامت هذه الإمارة على المذهب السني عكس باقي الإمارات. ونظرا لموقعها الجغرافي المتميز والمتصل بالبحر فقد ازدهرت تجارتها وترافق ذلك مع توسعها بحيث يحدد مجالها الجغرافي وفق ما ذكره البكري:

شرقا: نهر ملوية أو مليلة بحيث أن إمارة الأدارسة تمثل حدودها الشرقية.

غربا: قبائل مسطاسة وغمارة.

جنوبا: قبيلة أوربة ومنطقة تاوريت.

تعرضت الإمارة لثورة قبائل البرانس وهجوم النورمان سنة 244 هـ وأمكنها تجاوز هذه المحن في عهد قوتها، لكن الصراع على السلطة في البيت الحاكم أدى إلى إضعافها وانتهى الأمر باحتلالها من قبل الفاطميين سنة 305 هـ بعد مقتل الأمير سعيد وفرار أبنائه وأهله لمالقة الأموية.

لكن إصرار أهل نكور على الاستقلال والتمسك بالمذهب السني قد دعاهم لتقديم العهد للأمويين تحت إمرة بني صالح، ما وفر لأصغر أبناء الأمير سعيد والمعروف بصالح اليتيم فرصة الرجوع لنكور وتحديد الصراع مع الفاطميين.

انتقلت الإمارة لفرع آخر من الأسرة الصالحية يعرفون بـ "بني جرثم" الذين وصلوا الحكم مستفيدين من ضعف الوجود الشيعي بالمنطقة و تبعية العديد من المراكز الساحلية المغربية للحكم الأموي من ذلك نكور وهذا في إطار التنافس الفاطمي الأموي في المغرب

وفي سنة 410هـ استولت أسرة بربرية من أزداجة على الحكم في نكور

ثانيا: إمارة تامسنا البرغواطية ق (2- 5هـ)

يمتد إقليم تامسنا بين نهر أم الربيع جنوبا ونهر سلا شمالا، ومن البحر المحيط غربا إلى جبال فازاز (الأطلس المتوسط شرقا)، يقطن فيه قبائل كثيرة، يعتقد أن أهمها قبائل زناتة ومنها قبيلة برغواطية التي اعتنقت المذهب الصفري واشتركت في ثورة البربر ضد ولاية بني أمية بزعامة طريف لذا عرف البرغواطيين كذلك بـ «بنو طريف»، نسبة إلى مؤسس الإمارة طريف. الذي شارك في فتح الأندلس و قد حملت جزيرة طريف اسمه.

بعد عودة طريف من الأندلس، تولى زعامة زناتة وزواغة، وأشترك مع ميسرة المطغري في حملته ضد الإدارة العربية. وبعد مقتل ميسرة المطغري من قبل أنصاره الخوارج رجع طريف على تامسنا وبايعه أهلها على الإمارة سنة 122هـ حسب بعض الروايات و123 حسب روايات أخرى.

ومن المؤرخين من ينسب تأسيس الإمارة لابنه صالح، ذكر ابن حوقل الذي عدّه مؤسس الإمارة بأنه رحل للمشرق وتعلم علم النجوم ومستترا باعتناقه المذهب الصفري وبموالاته أمراء الأندلس، وفي حين أعتبر الدين الإسلامي خاصا بالعرب ابتدع ديناً جديداً لقومه لكنه أوصى من بعده بعدم الإعلان عنه إلا عندما يكونوا في وضع يسمح لهم بالظهور.

استفاد ابنه إلياس من القبائل التي التفت حول والد هو عمل على تقوية علاقات إمارته مع الأندلس، عبر موانئ أنفا وشالة وفضالة، مستغلا خصب منطقة تامسنا وغزارة إنتاج الحبوب بها.

وبعد القوة التي بلغتها دولة برغواطة واتساع نفوذها تمكن الأمير يونس بن إلياس بن صالح بعد عودته من الحج من إعلان دعوة جده، وأدعى النبوة محاربا بشدة كل من لم يستجب لدعوته بحيث أحرق الكثير من مدائن تمسنا وقتل العديد من أهلها.

هذا ما منح الدولة الإدريسية شرعية جهادها عهد إمامها إدريس الأول قال ابن أبي زرع " أخذ جيشا عظيما من وجوه قبائل زناتة وأوربة وصنهاجة وهوارة وغيرهم، فخرج بهم غازيا إلى تامسنا فنزل أولا مدينة شالة ففتحها ثم فتح بعدها سائر بلاد تامسنا ثم سار إلى بلاد تادلا ففتح معاقلها وحصونها" وبقيت البلاد تحت نفوذ إدريس الثاني وابنه محمد.

وقد تزامن ظهور برغواطة من جديد على مسرح الأحداث مع ضعف الأدارسة بحيث استعادت برغواطة قوتها في العقود الأخيرة من القرن الثالث عهد أمير من سلالة اليسع بن صالح وهو أبو غفير محمد بن معاد بن يسع (270-300هـ) متنبئ الأسرة الجديد الذي أعلن نفسه نبيا جديدا يقوم بأفعاله من وحي الملائكة التي تأتيه بما يأمرهم به وتنهيه عما يجب تركه.

من منطلق قوته وتعاليه خاض معارك ضارية ضد البربر ذهب ضحيتها الكثير وبهذا الأسلوب الترويعي أذعن له الكثير من القبائل، وأمكن خلفه أبو الأنصار عبد الله (300-341هـ) فرض نفوذه عليهم بحيث كانوا يدفعون شره بمهاداته

وفي عهد ابنه أبي المنصور الذي حكم سنة 341هـ جدد ديانة أجداده بادعائه النبوة من جديد، وبالقول برجوع جده صالح بصفته المهدي المنتظر قال ابن خلدون " ادعى النبوة والكهانة، وأشدت أمره وعلا سلطانه، ودانت له قبائل المغرب " وقد عمل على توسيع نفوذه خارج المغرب بمحاولته توطيد علاقته مع الأمويين.

بعد هذا التاريخ يصعب الحديث عن تاريخ برغواطة بانتظام لندرة المادة الخبرية المؤكد لدينا هو الصراع المرابطي البرغواطي أدى إلى مقتل الأمير اليسع بن إسماعيل سنة 452 هـ، وكذا قتل آخر أمراء برغواطة أبو حفص عبد الله من أحفاد أبي منصور عيسى، وقد حدد البكري سنة 460 هـ بتحول جميع بلاد برغواطة لملة الإسلام تحت إمرة المرابطين.

بسبب الموقع المميز لإمارة برغواطة ولتنوع مواردها الاقتصادية نشطت علاقاتها الاقتصادية بحيث نكف على نص في غاية الأهمية لابن حوقل تحدث فيه عن تنقل التجار بين إمارة برغواطة و إمارة سجلماسة المدراية والأدراسة في فاس وكذا المدن الواقعة جنوب برغواطة و البصرة ويفصل في ذلك بأن هذه العلاقات كانت تنشط في فترات السلم مع جيران برغواطة، أما العلاقة مع الأندلس فقد نشطت بين مراسي البلدين.

ثالثا: إمارة سجلماسة المدراية (140-366هـ)

قامت هذه الإمارة على المذهب الصفري، ظهرت في مدينة سجلماسة في واحة تافيلالت وكانت عصبيتها الأساسية قبيلة مكناسة الزناتية، وقد سبق لها الثورة مع ميسرة المطغري ضد الخلافة الأموية في دمشق بزعامة أبي القاسم سمكون بن واسول المدراي

أول أمراء سجلماسة هو عيسى بن يزيد الأسود (140-155هـ) ويجهل سبب استبعاد أبي القاسم واسول أو كونه تخلى عن هذا المنصب. وقد تمت مبايعته (155هـ) بعد مقتل عيسى السابق الذكر.

تحولت الإمارة لوراثة في بيت بني واسول رغم أن هذا يعارض مبادئ الخوارج في الحكم، ونظرا لموقعها التجاري المتميز في تجارة الصحراء ولمواردها الطبيعية، فقد ازدهرت اقتصاديا.

وشكلت قوة قبيلة مكناسة عاملا في استقرار الإمارة رغم المشاكل التي واجهتها عهد المنتصر الملقب بمدرار (208-253) الذي حدث نزاع بين ولديه ميمون ابن الرستمية وميمون بن تقيية حيث، ولى العهد لابنها الأول بتأثير من الإباضية أو بتغلبه على والده وخلعه فاستبد بالأمر وأساء السيرة فبايع أهل سجلماسة ابن تقيية مستفيدين من دعم التيار المعارض للتوجه الإباضي.

سيطر الفاطميون على الإمارة سجلماسة سنة 396 هـ، لكن بني مدرار تمكنوا من مواصلة حكمها تحت النفوذ الفاطمي بعد فشل محاولة الاستقلال التي قاموا بها سنة 309هـ، وقد استغل الأمير محمد بن الفتح (331-347هـ) أوضاع الفاطميين للتخلي عن التبعية لهم وإعلانه المذهب السني متخذاً لقب أمير المؤمنين الشاكر بالله وضرب السكة باسمه.

واسترجع الفاطميون سجلماسة مرة أخرى، لكن لفترة قصيرة ذلك أن رجوعهم للمشرق قد سمح

بالتدخل الأموي في المنطقة، لتسقط بيد بني خزرون الزناتيين المواليين للأمويين إلى أن استولى عليها المرابطون أواسط القرن الخامس الهجري.

الأوضاع الاقتصادية

رغم فترات الصراع التي رسمت تاريخ الإمارة مع جيرانها فإن مراحل القوة التي مرت بها وبفضل موقع سجلماسة الاستراتيجي الواقع على الطريق الرابط لشمال المغرب ببلاد السودان ولفترات القوة التي مرت بها الإمارة أصبحت حلقت وصل بين بلاد المغرب والسودان وبلاد الأندلس والمشرق تفيدنا في ذلك النصوص الجغرافية المتنوعة

ابن حوقل: "كانت القوافل تجتاز المغرب إلى سجلماسة وسكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون... وقوافلهم غير منقطعة إلى أرياح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابغة قلما يدانيها التجار في بلاد الإسلام سعة حال." وقال ابن فضل الله العمري: "إن السجلماسيين كانوا أغنياء ويتاجرون مع بلاد السودان، فهم يصدرون إلى هاته البلاد الملح والنحاس ويستوردون منها بالمقابل الذهب."

وكانت صادرات سجلماسة تتمثل في المواد الغذائية الرئيسية من قمح وتمر وعنب وملح، والمواد المصنعة من نسيج وحلي وفخار وجلد ومواد خشبية، ومواد التجميل والتوابل من حناء وكحول وكمون وقرنفل، ومواد علمية من كتب ومخطوطات. أما الواردات فهي متنوعة ومن أهمها ذهب غانا، الجلود وريش النعام من أودغشت، حرير المشرق والفخار الأندلسي، وغير ذلك.

ومن الأمثلة على مكانة سجلماسة التجارية في ذلك الوقت أن أمويي الأندلس كانوا يقبلون على منتوجات المغرب خاصة ذهب الصحراء عن طريق سبتة وفاس وسجلمااسة حتى أن الدنانير الذهبية الأندلسية كانت تضرب باسم الأمويين في مدن مثل نكور وفاس وسجلمااسة، وقد اكتشفت مجموعة مهمة من هذه الدنانير الأموية والتي يعود تاريخ سكها إلى نهاية القرن 4هـ وبداية القرن 5هـ بمدينة العقبة بالأردن في أبريل من سنة 1992م وكان من بينها 29 مسكوكة من أصل 32 ضربت بسجلمااسة.

وكذلك فإن فإن نصف مبالغ جبايات الفاطميين (أي حوالي 400 ألف دينار) كان يتوصّل إليه عن طريق سجلماسة.

استقطبت سجلماسة العديد من العلماء ورجال الدين والأدب فضلاً عن التجار وأصحاب الأموال فكانت بحق إحدى الركائز الأساسية في بناء الحضارة المغربية. و كما كانت سجلماسة منفتحة في علاقاتها الثقافية بلاد المغرب و المشرق ، فقد ظلت صلاتها بممالك جنوب الصحراء متميزة ، بحيث نشطت حركة القوافل التجارية ومعها انتقل العلماء لنشر الدين الإسلامي . كانت سجلماسة تمدد بلاد السودان بما يحتاج إليه من منتجات متنوعة، خاصة المواد الغذائية والفخار والألبسة المختلفة، في حين تزود بالذهب والعبود .

من مظاهر هذا التأثير الثقافي المغاربي على سكان بلاد السودان اعتماد نظام غذائي جديد يركز على المواد الفلاحية المستوردة من قمح و ذرة وتمر و عنب و تين و لحوم حمراء وغيرها والتي لم تكن معروفة قبل دخول الإسلام إلى هذه المناطق مما يزيكي احتكاك أهل السودان بالعرب والمسلمين المقيمين هناك وعلى رأسهم قاطنوا سجلماسة وتجارها.

وقد لفت انتباه الجغرافيين العرب القدامى طابع العري شبه التام الذي كان هو الغالب على سكان بلاد السودان، لكن مع انتشار الإسلام وتأثر السكان المحليين بالنمط المعيشي العربي بدأ تدريجياً تعميم ارتداء الأقمشة، بل ودخلت زراعة القطن إلى أودغشت من سجلماسة، بحيث تحولت إلى مركز هام لإنتاج النسيج مع منتصف القرن 5هـ.

ومن أبرز مظاهر هذا التأثير أيضاً اعتماد بلاد السودان لأنماط تخطيط المدينة العربية الإسلامية بأسوارها، بمساجدها، بأسواقها وبدورها وشوارعها، وكذلك من حيث إتباع طرق البناء سواء بالطين أو بالحجارة. ويرجع الفضل الأكبر في ذلك إلى التجار والعلماء المغاربة الذين استقروا بمواضير بلاد السودان، حيث شيّدوا منازل لا تختلف في شيء عن منازل فاس ومراكش وسجلماسة. فالأبحاث الأثرية التي أجريت بموقع أودغشت أبرزت مدى التشابه الكبير جدا بين الطرز المعمارية في المدينتين.

وعلاوة على ذلك فهناك الكثير من العادات الإسلامية التي ترسخت في المجتمع السوداني نتيجة احتكاكهم بسكان مناطق شمال أفريقيا وخصوصا سجلماسة والمراكز التجارية الأخرى وفي هذا يذكر ابن بطوطة في رحلته: "فمن أفعال (السودان) الحسنة قلة الظلم... ومنها شمول الأمن في بلادهم... ومنها عدم

تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان (الأجانب)... ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها في الجماعات وضربهم أولادهم عليها... ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة... ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم..."

وكان يقيم ببلاد السودان العديد من التجار والفقهاء والعلماء المغاربة الذين كانوا يحظون برعاية خاصة من طرف الملوك السودانيين. ويذكر ابن بطوطة الكثير منهم في رحلته ومن بينهم والذين ينحدر أصلهم من سجلماسة: الفقيه محمد الفيلاي، إمام مسجد البيضان بمدينة كوكو على نهر السنغال، والحاج محمد بن سعيد السجلماسي أحد كبار التجار وممثل السلطان أبو عنان المريني

رابعا: الدولة الرستمية (161-279)هـ

نعرف الكثير عن تاريخ هذه الدولة مقارنة مع جيرانها، ومن الأسباب الرئيسة لذلك عناية أهلها بتدوين أخبار أسلافهم، يضاف لذلك الكتابات غير الإباضية التي سجلت أخبارهم بقصد أو بغير قصد تنسب هذه الدولة لمؤسسها عبد الرحمان بن رستم الفارسي القيرواني الإباضي الذهب أحد حملة العلم الخمسة.

تمثل سنة 140هـ رجوع حملة العلم الإباضية من المشرق، منهم عبد الرحمان بن رستم، وأبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليميني، هذا الأخير بويع بالإمامة، في وقت أصبحت فيه الظروف مواتمة لإعلان قيام الإمارة فتم ذلك بدخول طرابلس وطردها في السنة نفسها لم تكن المعركة لصالح الإباضية بحيث قتل أبو الخطاب.

تولى الإمامة بعده ابن رستم (بعد 141هـ) وتراجع بجيشه . للمغرب الأوسط أمام ضربات العباسيين، وبقيت قبائل نفوسة على عهدها له بحيث لحقت به لتشهد معه تأسيس مدينة تاهرت لتكون مقرا لحكمه وذلك سنة 144هـ

توفرت مجموعة من عوامل على اختيار ابن رستم للإمامة ولها غياب عصبية له بالمغرب لأصوله الفارسية، واتصافه إضافة للعلم بالعدالة، الأمانة ورجاحة الرأي. وبذلك تجمعت حوله مختلف القبائل وجعلته مطاع الكلمة.

لقد اسهمت المعونة التي قدمها إياضية المشرق لإخوانهم بتيهرت في ازدهار تيهرت وتحولها لقبلة اقتصادية وعلمية بالمغرب، وفرت فرص ساحة للمعيشة لمختلف الطوائف العرقية والمذهبية التي استقرت بها، ولا يمكن إهمال دور الموقع المتميز لتيهرت في الازدهار الاقتصادي الذي شهدته، بحيث كانت تقع على نهر شلف، وتجمع بين الإمكانيات الزراعية والموقع التجاري الرابط بين الشرق والغرب وبين الصحراء والبحر.

مرت الدولة الرستمية بمرحلتين

مرحلة القوة: (161-258)هـ

تشكل عهد الأئمة الثلاثة الأوائل لكنها لا تخلوا من العديد من المصاعب التي تعرضت لها الدولة على المستوى السياسي بسبب خروجها عن تعاليم المذهب في مجال الإمامة.

الانشقاق الأول: حدث في عهد الإمام الثاني عبد الوهاب بن رستم وأفرز عن ميلاد فرقة معارضة للدولة باسم النكار أوفرقة ابن فندين وقد تشكلت عموماً من بني يفرن وسدراتة ومزاتة، وهذا ما منح فرصة لقبائل زناتية أخرى في الثورة على الإمام سنة 195 هـ، ولا يمكن إهمال دور الأدارسة في الصراع في المنطقة.

الانشقاق الثاني سمي بالخلفية نسبة لخلف بن السمح بن أبي الخطاب المعافري الذي بويع بالإمامة من قبل بعض القبائل بمنطقة طرابلس التي تشكل مركز ثقل هام في الدولة الرستمية

الانشقاق الثالث تم بجبل نفوسة عرف بالحركة النفاثية التي انتقدت غياب الشورى في عهد الإمام أفلح وعابت عليه سوء سيرة موظفيه وقد كلف هذا الخروج الدولة الكثير على غرار الحركات السابقة.

مرحلة الضعف: (258-297)هـ

تشكل هذه المرحلة فترة للصراع بين عدة طوائف في الدولة معززة بالخلاف على الحكم في الأسرة الرستمية فقد جلبت أهمية تاهرت إليها عناصر مختلفة منها جماعة من جند إفريقية العرب الذين فشلوا في ثورتهم على الأغلبة ودخلوا كجند في الدولة الرستمية بعد تراجع دور القبائل، لكنهم أصبحوا يتدخلون في شؤون الحكم، ما فتح باب الصراع بينهم وبين فرقة الفرس المدعمين بقبائل نفوسة.

وتطور النزاع حول الإمامة ما بين هواره من جهة ونفوسة وحلفائها من جهة أخرى منهم لواتة أصهار الأئمة بحيث وصل الأمر باستيلاء هواره على تاهرت بمعية أبي اليقظان، الذي استولى على الإمامة على

حساب أخيه أبي بكر واستمرت الحرب بين الطرفين سبع سنوات.

ولم تستقر الأوضاع نسبيا إلا بعد سنة 268هـ بعدما تمكن أبو اليقظان من الانفرد بالحكم وإحداث جملة من الإصلاحات، منها التخفيف من سلطة نفوسة في الجانب المالي ومحاولة التقرب إلى مختلف القبائل ورفع المظالم وترك الحرية لمختلف الطوائف المذهبية التي كانت تقيم بتاهرت من معتزلة ومالكية واحناف وصفرية.

بوفاة أبي اليقظان سنة 281هـ ساءت أوضاع الدولة سياسيا بحيث آل الأمر للعامة في مبايعة إمام آخر (282هـ) غير الذي تمت له البيعة وهو أبو حاتم فوجد نفسه في حاجة لدعم قبائل صنهاجة ولوانة والعجم وإلى استعمال المال لاصطناع الأتباع داخل تاهرت التي تعذر عليه دخولها وأثمرت سياسته بالتنازلات التي قدمها للسكان بالتخفيف من مركز أنصاره في الحكم بحيث عين كبار أعوانه باقتراح من المشائخ الإباضية وغير الإباضية وهم القاضي صاحب بيت المال وصاحب الشرطة فاستقرت الأوضاع إلى حين.

في سنة 294هـ وصل للحكم الإمام أبي اليقظان الذي اتهم ابنائه باغتيا لعمهم في الوقت الذي نشطت فيه حوكة ابن خلف في إقليم طرابلس، وكثرت المؤامرات داخل القصر وتنازعت أهواء القبائل فضعفت عصبية الدولة، ولم تعد العامة من غير الإباضية مهتمة بمن يصل إلى الحكم، فسهل الأمر على الفاطميين لإسقاط الإمارة الرسمية سنة 297هـ، لكن ذلك لم يكن إنهاء للوجود الإباضي المذهبي أو السياسي الذي بقي حاضرا في إفريقية والمغرب الأوسط إلى العصر الحالي وإن تركز بشكل أساسي في واحات الصحراء النائية.

خامسا: إمارة الأغالبة في إفريقية: (184-297)

1- التطور السياسي:

أمراء بني الأغلب هم من سلالة إبراهيم بن الأغلب الذي كان نائبا لوالي القيروان في منطقة الزاب، وبرهن عن جدراته في قتال الخوارج، ولما تبين للرشيد العباسي إمكانية فقدان إفريقية المهتدة من طرف الخوارج والأدارسة، زيادة على فتن الجند العربي والفراسي بها جعلها ببدء إمارة وراثية شبه مستقلة تعترف

بالسيادة العباسية وتبعت بالإتاوة السنوية عربونا على ذلك.

هذه الوضعية فرضت منذ البداية تلازم أمرين هامين، الأول: مواجهة مشكل فتن الجلد، والثاني موضوع الجباية لتلبية حاجيات هؤلاء أو تشكيل فرق جديدة، وتنفيذ الالتزام للخلافة العباسية بدفع إتاوة سنوية إضافية إلى ضرورات حياة القصور.

فبالنسبة لمشكل الجلد، بدأ قبل وصول الأغالبة إلى الإمارة، فحاولوا التخفيف من مشاكلهم بتوجيه الجند إلى أعمال عسكرية خارجية وذلك بمحاولة فتح صقلية وعمليات بحرية أخرى، ثم بإقصائهم أخيرا إلى مناطق الثغور وكانت أرزاق الجند وأعمال الفتوح تفرض جميع الجبايات بأساليب مختلفة، مما سهّل انتشار دعوة الشيعة في الجهات البعيدة بأساليب مختلف، مما سهل انتشار دعوة الشيعة في الجهات البعيدة نسبيا عن العاصمة، حتى اضطر أحد الأمراء الأواخر للتخفيف من الضريبة.

-غير أنّ ثورات الجند التي سبقت قيام الإمارة استمرت في عهدها بشكل متقطع، وأخطر الثورات هي التي حدثت سنة 209 ضد الأمير الثالث زيادة الله الأول (201-223هـ) حيث ضرب الناصر منصور الطبذي السكة باسمه ولم يبق لزيادة الله من البلاد غير قابس والساحل ونفراوة وطرابلس، وما أن قضى الأمير على هذه الثورة حتى بدأت عملية فتح صقلية ابتداء من سنة 212 على يد القاضي المشهور أسد بن الفراد مستفيدا من استنجاد أحد المتمردين بها، وتعود محاولات فتحها إلى أواخر القرن الأول في عهد ولاية موسى بن نصير سنة 86، ثم على الخصوص سنة 116، وعملت ثورات البربر الخوارج على تأخير حركة الفتح لكن الظروف أصبحت مناسبة في مطلع القرن الثالث، فأصبحوا يلعبون دورا مهما في تجارة بين القارة والمدن الإيطالية والشرق، ولذلك امتلكوا أسطولا قويا حاولوا أن ينافسوا به الأمويين في الحوض الغربي للبحر المتوسط ومن جهة أخرى فإن العمليات في صقلية تفتح مجالا للجند يشغلهم عن الثورات رغم الطابع الديني ظاهريا لهذه العمليات. غير أنّها امتدت إلى سنة 284.

2-مظاهر حضارية:

الإدارة والجيش:

كانت الهيئة الإدارية للأغالبة شبيهة بما لدى العباسيين كالوزير والحاجب وصاحب البريد (صاحب

الشرطة)، ووجود عدد من الكتاب يشرفون على ديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند، غير أن منصب الوزير لم يكن له غير إطار شرقي ومن الملاحظ أن الأغلبة لم يعينوا قط غير العرب في منصب وزير أو في مناصب هامة أخرى إلا بصورة استثنائية.

فبالنسبة للجيش، كان في بداية عصر الإمارة يتشكل ممّا خلفه الولاة الأواخر، فهم من العنصر العربي أساسا والعنصر الفارسي ونواة من زنوج كحرس خاص للولاة ونظرا لما أحدثته الجند العربي من فتن، مال الأمراء الأغلبة إلى توجيه هؤلاء الجند للعمليات في صقلية، وإلى الثغور مع الرستميّين لمواجهة القبائل التابعة لهم أو المتمرّدة على السلطة الأغلبية ومن جهة أخرى تشكيل فرقة من العبيد الصقلية (الفيانيان)، ثم تكوين حرس من العنصر الزنجي، قال ابن خلدون عن الأمير أبي إبراهيم أحمد (242-249هـ) "اتخذ العبيد جندا" وعن الأمير إبراهيم الثاني (261-289هـ) قال: وفي سنة ثمانين (ومائتين) كثر الخوارج، وفرّق العساكر إليهم فاستقاموا واستركب العبيد السودان واستكثر منهم فبلغوا ثلاثة آلاف". ولكن هؤلاء لم يبلغوا من حيث القدرة والعدد ما كان للعنصر العربي، وهذا ما جعل الإمارة عاجزة عن مواجهة القوة الفتية الناشئة على ثغورها الشمالية الغربية وهي قوة العبيديين الذين اقتطعوا منطقة كتامة من يد الأغلبة قبل سقوط إمارتهم.

الدولة الأموية في الأندلس عصر الإمارة (138-316هـ)

مشاكل تأسيس الإمارة

لاشك أن الظروف التي كانت تعيشها الأندلس منذ فتحها من نزاعات عصبية على الخصوص كانت خير مساعد للأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية بن هشام على إنشاء إمارته، فبإمكان إحدى العصبيات أن تنظم تحت لوائه لتكتسب به دعماً على حساب العصبيات الأخرى، وهذا ما قامت به اليمانية والبربر لمواجهة القيسيين، فتمكن بواسطتهم من دخول قرطبة عاصمة الولاية في عاشر ذي الحجة 138 هـ حيث بويغ بالإمارة، إلا أن التوافق بين عبد الرحمن - الذي سمي بالداخل - وكل من اليمانية والبربر، و لم يطل لكونه يسعى إلى إحداث التوازن بين هؤلاء والعصبية القيسية والذي من شأنه أن يحدث الاستقرار بالبلاد.

من العادة أن كل مؤسس لحكم جديد أن يجد صعوبات كثيرة في طريق تمهيد حكمه، فعبد الرحمن الداخل واجه بدوره جملة من هذه الصعوبات خلال فترة حكمه (138-172هـ) يمكن تصنيفها إلى ما يلي:

. معارضة قيسية: يمثلها أصحاب السلطة الولائية المنتهية وعلى رأسهم يوسف الفهري الذي أعلن عصيانه في مدينة ماردة سنة 141، حيث جمع جيشاً معظمه من البربر لغزو قرطبة، لكن التمرد انتهى بمقتله على يد بعض أتباعه سنة 143، وحاول عمه الثورة سنة 171، دون نتيجة.

. ثورة أنصار العباسيين: حيث حرض المنصور العباسي (136-158) زعيماً عربياً بباجة (في الغرب) هو العلاء الجذامي فأعلن ثورته سنة 147 داعياً للمنصور بعد أن جمع حوله الساخطين على الأمير وخاصة من العصبية اليمانية التي لم تحصل على النفوذ التي كانت ترجوه من وراء دعمها للأمير³، إذ كان يرفض أن يكون أداة طيعة في يد هذه العصبية⁴، ووصل الثوار بالأعلام السود إلى شرقي إشبيلية، غير أن الأمير تمكن من هزيمتهم رغم قلة من معه، مما جعل المنصور يلقبه صقر قریش

وتسوق بعض الروايات تحالف المهدي العباسي (158-169) مع شارلمان ملك الإفرنج بحيث يشغل الزحف الإفرنجي الأمير الأموي عن إنزال قوة عباسية على الساحل الشرقي بزعامة عبد الرحمن بن حبيب

الفهري القادم من إفريقية، غير أن هذه القوة العباسية قضى عليها بسرعة 6، كما اضطر شارلمان إلى التراجع سنة 162 بسبب أخبار عن قبائل السكسون في الراين، وقد أدى فشل هذه العملية إلى قطع أطماع شارلمان في جنوب البرنيس لإحياء الإمبراطورية الرومانية، كما نقل هذا الفشل العلاقات بين العباسيين والأمويين من علاقات حرب علنية إلى حرب خفية أو منارات دبلوماسية، بمحاولة عقد صداقة مع أعداء الطرف الآخر فسارع إلى قبول اقتراح إمبراطور بيزنطة بعقد صداقة بين الطرفين سنة.

الصف الثالث من المعارضين: هم البربر بزعامة شقيا ابن عبد الواحد المكناسي، مدعيا أنه فاطمي من سلالة الحسين، وقد امتدت ثورته بشرق ووسط الأندلس بين سنتي 150 و 160 فهزم جيوشا للأمويين معتمدا على تجنب المعارك المكشوفة والحاسمة، ولم يقض عليه إلا بقتله غدرا وبإحداث الفرقة بين أتباعه من البربر.

معارضة من داخل الأسرة الأموية: حيث اكتشف الأمير مؤامرة لعزله سنة 168هـ بتعاون مع أحد زعماء اليمانية ابن الصميل بن حاتم بالتعاون مع يوسف الفهري، ففضى على المتآمرين، ويظهر أن العامل الأساسي في تغلبه على هذه المحاولات يعود أساسا إلى عدم تعصبه إلى عصبية معينة وذلك لخلق توازن بين اتجاهات المجتمع 4، وقد لخص المنصور العباسي نجاح الأمير عبد الرحمن في إقامة دولته بالأندلس فيما يلي " اقتحم جزيرة.. نائية.. ضرب بين جندها بخصوميته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته... حتى انقاد له عصيهم... فاستولى فيها على أريكة... قاهرا لأعدائه... مانعا لحوزته خالطا الرغبة إليه بالرهبة منه "

جوانب اجتماعية حضارية

شكل العهد الأموي الأول بالأندلس فترة امتزاج بشري نتجت عنه طائفة المولدين، وامتزاج حضاري نشأت عنه طائفة المستعربين النصارى، أي أن هناك احتكاك بين مؤثرات محلية وأخرى مشرقية شامية نظرا لخضوع الأندلس لحكومة الشام الأموية ثم استقلالها تحت أسرة الأمويين القادمة من الشام، فأصبحت قرطبة تشبه من حيث عمارتها بدمشق (منازل بيضاء ذات أحواش مزينة بالأزهار والنافورات)، وقصور تشيد خارج المدينة (الرصافة)، وتبرز المؤثرات الدمشقية أيضا في جامع قرطبة بناء وزخرفة.

كما أخذت فواكه الشام تغرس بالأندلس (الرمان السفري مثلا)، وفي الميدان الفقهي تأثر الأندلس بمذهب إمام الشام العالم الأوزاعي (ت157هـ) الذي ركز اهتمامه على أحكام الجهاد (الشام تغر

مع البيزنطيين، والأندلس ثغر ضد الإسبان)، ثم حل المذهب المالكي في عصر الأمير الحكم الأول محل مذهب الأوزاعي حيث أصبح مقبولا في البيئة الأندلسية.

ب . الإمارة بين الاستقرار والاضطراب أو عصر الأميرين هشام والحكم (172-206)

كانت أهم أحداث مدة هاذين الأميرين تتعلق بخلق نظام ولاية العهد وما ترتب عنه، وظهور مشكل المولدين.

سيرة الأمير هشام وغزواته

فقد تنافس الأميران هشام وسليمان على السلطة في حياة والدهما عبد الرحمن، وكان كل منهما يمثل قوة لها مكانتها: فالأمير هشام من مواليد الأندلس ومن أم إسبانية الأصل أي أنه يمثل الحزب الأندلسي من المولدين وغيرهم من أهالي البلاد الأصليين، أما أخوه سليمان فأمه عربية من مواليد الشام والأكبر سنا يتعصب له العرب الشاميون، وعندما بويع للأمير هشام سنة 172 ثار أخوه سليمان وبايعه أهل طليطلة وما جاورها، ثم زحف على قرطبة (174)، وانتهت الحرب بهزيمته ونفيه إلى المغرب.

اتبع الأمير هشام سياسة أبيه في الموازنة بين العصبية حتى لا تتفوق إحداها، ولكنه قرر الاعتماد على جنده من العبيد الذين حررهم، فأصبحوا فرقة مرتزقة، وبعبارة ابن عذارى: "جند الجنود المرتزقة".

ومما ذكر عنه تقيده للفقهاء واعتماد المذهب المالكي مذهباً رسمياً للدولة بعد أن كان المذهب السائد هو مذهب الأوزاعي إمام أهل الشام، قال ابن حيان: "انتقلت الفتاوى من رأي الأوزاعي وأهل الشام بالكلية... فحولت إلى رأي مالك وأهل المدينة، وانتشر رأي مالك بقرطبة وعامة بلاد الأندلس وذلك برأي الحكم وأمره وإيثاره"6، كما اشتد الحكم في مراقبة عماله، "فكان يسأل الناس عن سيرتهم"، كما كان "حاكماً بالسنة والكتاب": فوصف بالصلاح والعدل حتى شبه بعمر بن عبد العزيز.

وعلى مستوى العمل العسكري نظم غزوات في الشمال الغربي ضد الإسبان (جليقية) وفي الشمال الشرقي ضد الفرنج، إذ استغلوا تمرد المعارضين من العائلة أو من البربر لمحاولة التحرك ضد المسلمين، وربما كانت الغنائم الهامة من الجهتين هي التي مكنته من القيام ببعض الأعمال العمرانية، مثل إتمام جامع قرطبة، وإصلاح جسرها الذي يربطها بأرباضها جنوب النهر، مما سهل انتشار العمران جنوبه حيث حي

الربض.

الأمير الحكم وثورة المولدين (في طليطلة وربض قرطبة)

اشتهر الحكم بن هشام بلقب الرضي (180-206)، إذ في عهده وقعت ثورة أهل الربض بقرطبة، ولكنها ليست الثورة الوحيدة التي واجهها بعنف وحزم، فقد ثار عليه عمه سليمان (الذي كان منفيًا بطنجة) وعبد الله (وكان منفيًا بتاهرت)، فسليمان جند معه جيشًا من البربر بمنطقة بلنسية، وتكررت تحركاته إلى أن قتل في إحدى المعارك قرب ماردة سنة 184.

أما عمه عبد الله فاختر المنطقة المعادية للأمير أي الشمال الشرقي، وكان انشغال الحكم بهذه الثورة فرصة لملك الفرنج لاحتلال مدينة برشلونة سنة 185. ، وبعد نهاية هذه الثورة تمت المصالحة أو المهادنة بين ملك الفرنج والأمير الحكم، دون استرجاع برشلونة.

بعد التخلص من هذه المعارضة العائلية ظهرت ثورة المولدين بكل من طليطلة وقرطبة كانت أسبابها متشابهة في المدينتين، فالمولدون فئة اجتماعية جديدة تكاثر عددها، ومنها التجار والمزارعون وأهل الحرف المختلفة والفقهاء، وقد أخذت هذه الفئة تحس تدريجياً بنقص في حقوقها العامة خصوصاً المناصب التي سيطرت عليها الأرستقراطية العربية الحاكمة، هذه الوضعية الاجتماعية لهذه الجماعة كانت تلائمها وضعية الفقهاء الذين فقدوا مكانتهم لدى الأمير الذي كان - على عكس أبيه - يوصف بانشغاله بمجالس اللهو والشعر والتعدي في الجبايات، قال ابن الخطيب "أنكر الناس عليه أموراً منها: إطلاق يد ربيع القومس متولي المعاهدتين بالأندلس من النصارى، وكان حضيماً في رجاله، سوّغه افتراض المعاون والمغارم على المسلمين"، فأصبح الفقهاء من المحرضين على عزله، قال المراكشي "وكان أشد الناس عليه في هذه الفتنة الفقهاء، هم الذين كانوا يحرضون العامة ويشجعونهم"

وهكذا كانت الثورة الأولى في طليطلة بهدف الاستقلال عن الأمويين، وكان معظم أهلها -مولدين ومستعربون- معتمدين على حصانة مدينتهم، لكن قضي على الثورة بالقبض على أعيان المدينة وقتلهم، فنارت سنة 198-199، فهزمهم الأمير بنفسه "حتى رحل أكثر وجوههم إلى قرطبة فزالت نخوتهم"4، وتكرر تمردهم لاحقاً كما حدث بين سنتي 214 و222 خلال سنتي 225-226 .

أما ثورة ررض قرطبة سنة 202 فكانت أخطر لوجودها في العاصمة، ويظهر من بعض الروايات التي أوردها ابن حيان وجود صلة بين ثورة أهل طليطلة وعامة قرطبة، وكان السبب المباشر لهذه الأخيرة مقتل حداد من المولدين الرضيين على يد جندي بعد شجار بينهما، فأغلق الرضيون حوانيتهم ومتاجرهم وحاصروا قصر الأمير، لكنه قضى على الثورة بعنف حيث "قتلوا قتلا قبيحا" حسب تعبير المراكشي وهدم الحي وتحول إلى أرض زراعية، وأمر بنفي من بقي من أهله حيا، فتفرقوا في الأندلس، ووصل بعضهم إلى شمال المغرب حيث أسكنهم الأمير إدريس الثاني بمدينة فاس في العدو الشرقية التي كانت ضعيفة العمران، وكانوا أهل زراعة وحرف وصناعات... فأعطوها طابعا أندلسيا فعرفت بعدوة الأندلس .

هكذا تمثل ثورتا طليطلة والرض بروز قوتين جديدتين في المجتمع، قوة الفقهاء وخاصة أقطاب المذهب المالكي، وقوة العامة التي أغلبها من المولدين الذين يشعرون بضعف مكانتهم في المجتمع رغم دورهم البارز في الحياة الإنتاجية

بعض الجوانب الحضارية:

في عهد الأمير هشام بدأت التأثيرات الحجازية تصل إلى الأندلس لعاملين أساسيين: ضعف أهمية الشام بعد انتقال عاصمة الخلافة إلى العراق، وضعف دور الشاميين في الأندلس في الهيكل الحكومي، وكانت التأثيرات الحجازية بارزة في الميدانين الفني والفقهي، فقد برزت في المدينة الموسيقى العربية الأصيلة التي أخذت تدخل الأندلس، كما ظهر بالمدينة أيضا الإمام مالك بن أنس (ت179) لعدت اعتبارات مثل سهولة الاتصال بالحجاز أثناء مواسم الحج، وانتشار المذهب الحنفي في العراق وتبنيه من طرف العباسيين، بينما تريد الأندلس أن تكون مستقلة عنهم سياسيا ومذهبيا، بل قيل إن مالك لم يكن راضيا عن العباسيين، كما كان هوى الإمام مالك مع أمويي الأندلس، ولا سيما الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل الذي وصلت إليه أخبار عدله وصلاحه، وأنه كان يأكل الشعير، ويلبس الصوف، ويجاهد في سبيل الله، فقال الإمام مالك قولته المشهورة "نسأل الله تعالى أن يزين موسمنا بمثل هذا".

ويعود انتشار المذهب المالكي حسب ابن خلدون إلى بساطته التي كانت تناسب عقلية المغاربة والأندلسيين، تلك البساطة التي دفعتهم من قبل أيضا إلى قبول مذهب الإمام الأوزاعي لأنه ضد قياسات الحنفيين، فمذهبه متمسك بالقرآن والسنة دون إطلاق العنان لاستخدام العقل والقياس إلا عند الضرورة،

ولم يقبل الأمير هشام أكثر من مذهب في بلاده تجنباً للخلاف المذهبي حتى يتفرغ أهلها إلى مواجهة جيرانهم من المسيحيين الذين تجنبوا بدورهم تعدد المذاهب، ومن أشهر أقطاب حملة المذهب المالكي إلى الأندلس الفقيه القرطبي الطنجي الأصل يحيى الليثي المتوفي سنة 234 .

ولقد اعتبر الأمير الحكم أول من كسى الخلافة أبهة الجلالة ببناء القصور وجلب الماء إليها... واستقبال غرائب الأشياء من خارج البلاد، وسك عملة وطنية فضية بعد أن كان الناس يتعاملون بالعملات الواردة من خارج البلاد وحدها.

ج - عهد عبد الرحمن الثاني، تنظيم وحضارة وانفتاح (206-238هـ)

كان عصره عصر استقرار عموماً رغم بعض الثورات، كثورة طليطلة التي قادها هاشم الضراب ضد الأمير الأموي، وذلك سنة 214هـ، ثم عاود قتاله سنة 216هـ، بعد أن تغلب على جانب الثغر، فأرسل " عبد الرحمن إلى " محمد بن رستم " للتقدم نحو الضراب، ف وقعت بينهم حرباً شديدة، انهزم فيها الضراب، وقتل هو ومن كان معه، وكانوا آلافاً.

بالإضافة إلى بعض المجاعات التي نخرت جسم الأندلس ففي سنة 207هـ، حدثت مجاعة شديدة، ذهب فيها خلق كثير، وبلغ المد في بعض البلاد ثلاثين ديناراً، وكان سببها انتشار الجراد بالأرض ولحسه للغلات وتردده بالجهات، فنالت الناس مجاعة عظيمة .

وفي سنة " 232 هـ " قحطت بلاد الأندلس حتى هلكت المواشي واحترقت الكروم والشجر، وكثر الجراد، ويضيف ابن حيان " فزاد في المجاعة وضيق المعيشة "، وغلت الأسعار في جميع بلاد الأندلس، ويضيف أيضاً " ابن الأثير " أن في هذه المجاعة هلك خلق كثير من الآدميين والدواب، وبيست الأشجار، ولم يزرع الناس شيئاً فخرج الناس يستسقون فسقوا وزرعوا، فزال عن الناس القحط .

أهم التنظيمات في عصره:

أهمها ما يخص نظام الوزارة، وقد وصف ابن خلدون ما أحدثه الأمويون من هذا النظام الذي يبدو مؤسسه هو الأمير عبد الرحمن الثاني، فجعلوا " لحساب المال وزيراً (المالية)، و للترسيل وزيراً (الكتابة العامة)، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً (العدل)، والنظر في أحوال الثغور وزيراً (الدفاع)، وجعل لهم بيت

يجلسون فيه (مجلس الوزراء)، وانفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم...وارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب"6، كان المجلس الوزاري ينعقد يوميا بقصر الأمير عبد الرحمن يرأسه شخصا أو من يفوض له ذلك،

"فهو أول من رتب اختلاف الوزراء إلى قصر الخلافة كل يوم، والتكلم معهم فيما يحبه من أمور المملكة...". وكان هؤلاء الوزراء يتلقون راتباً شهرياً كما تعددت الوزارات حسب التخصصات، إلا أن مناصب الوزارة كانت متوارثة في أسر معينة من موالي الأمويين.

ومن التنظيمات الإدارية الأخرى ما يختص بالأمن الداخلي التي كان من قبل في يد صاحب السوق في العاصمة، فأصبح في عهد عبد الرحمن الثاني (الأوسط) الوظائف التالية:

. وظيفة صاحب السوق وقد اقتضت مهمته على مراقبة الأسواق ومشاكل التموين، وكان له من قبل مهمة الشرطة أيضاً. (مهمة المحتسب لاحقاً).

. وظيفة صاحب الشرطة العليا، وينظر في قضايا الفئات العليا من المجتمع، كما ينظر في أمر الجاسوسية (العيون)

. وظيفة صاحب الشرطة السفلى، الذي ينظر في أحوال عامة الناس.

. وظيفة صاحب المدينة أو والي المدينة، ويشرف على المرافق العامة.

وصول تأثيرات الحضارة العراقية

يجمع المؤرخون على أن عبد الرحمن الثاني (الأوسط) كان أكثر الأمراء الأمويين علماً وثقافة في القرنين الثاني والثالث، وهذا الجانب يتفق مع ترحيبه بالعلماء والفنانين القادمين من الشرق وجلبه للكتب المهمة، لأن هذه الفترة شهدت في الشرق ازدهار الدراسات المختلفة وتطور صناعة الورق المساعد على نسخ الكتب، وأصبحت السلع العراقية رائجة في الأندلس وخاصة الثياب، فظهرت معامل النسيج، ويظهر أن العامل المساعد لهذا هو إتباع سياسة التعايش السلمي بين الأمويين والعباسيين خصوصاً وأن هؤلاء أخذوا منذ هذا الوقت تقريباً ينحدرون نحو الضعف وسيطرة الأتراك على سياسة الخلفاء، إضافة إلى هجرة جملة من تجار العراق إثر ظهور عدم الاستقرار به منذ أوائل القرن الثالث

فإذا كانت الأندلس تأثرت سابقا بفن الغناء الحجازي، فإن هذا الفن أخذ يتراجع أمام الموسيقى العراقية التي أصبح يمثل مدرستها المغني علي بن نافع المعروف بزرياب الذي دخل الأندلس سنة 206هـ، وهو زيادة على أساليبه الجديدة في الموسيقى حمل معه أساليب خاصة بفن الطهي العراقي وتقديم الأطعمة وطريقة تصنيف الشعر، واستعمال الملابس حسب الفصول، وهو ما عرف بمراسيم زرياب، أما ميدان العمارة فقد شمل بناء المنشآت الدينية والاجتماعية (جامع إشبيلية وإتمام جامع قرطبة وبناء المدارس بجانب الجوامع)، وبني قصره الجديد بأبراجه الزجاجية على الوادي الكبير بقرطبة، وتأسست في هذا العهد مدينة مرسية (216)، ومن التحصينات العسكرية بناء سور قرطبة بعد ثورة الربض، وسور إشبيلية Seville بعد غارة النورمان عليها سنة 230هـ.

الجهاد البحري والعلاقات الدبلوماسية مع النصارى

اهتم أمويو الأندلس ببناء أسطول على السواحل المتوسطية كانت عناصره البشرية متنوعة، فكان العنصر العربي في السواحل الجنوبية وأكبر قواعد الأسطول حول ألمرية (بجاية) وعنصر المولدين والبربر والمستعربين في الساحل الشرقي (ومعهم عناصر عربية) حيث كانت توجد مراسي ورباطات ودور لصناعة السفن خصوصا بسبب توفر الحديد و الخشب بالمنطقة ودور قديمة لهذه الصناعة، فأمكن للأسطول الأندلسي التحرك في الحوض الغربي للبحر المتوسط وخاصة للاتصال بسواحل المغريين الأوسط والأقصى منافسا للأسطول الأغليبي الذي سيطر على وسط البحر المتوسط (سواحل ايطاليا) ونافس الأسطول الأموي في الغرب، فأصبح هذا الأخير يقوم بدور نشيط في التجارة وفي الجهاد البحري منذ أواسط القرن الثاني الهجري، وتذكر بعض المصادر أن الأسطول الأموي عزز الحماية الأغلبية سنة 214 في بعض المدن الصقلية المفتوحة.

كانت صقلية مع أقصى جنوب إيطاليا تابعتين للبيزنطيين، ولا شك أن فتح المعتصم لعمورية شرقا سنة 214 وتهديد الأغلبة لصقلية غربا كانا حافزين للبيزنطيين لكي يبحثوا عن تحالف مع الأمويين ضد العباسيين وأتباعهم الأغلبة، وتم الاتفاق الودّي سنة 225 في عهد الإمبراطور تيوفيل (212- 226هـ)، لكن الأمير الأندلسي لم يلتزم بأي عمل مضاد لنشاط الأغلبة في صقلية بل اعتبرهم مجاهدين، هذا الاتفاق إن دل على شيء فإنما يدل على أن العالمين الإسلامي والمسيحي قد بدأ يخرجان عن تقاليدهما القديمة

والقائمة على الاعترافات الدينية في العلاقات (انغلاق)، إلى اكتساب تدريجي لتقاليد تقوم على المصالح الخاصة (تفتح دبلوماسي)

أما العلاقات بين الأمويين والفرنج (فرنسا) فقد ظلت متوترة والغارات متبادلة، فالأمويون لم ينسوا عداء شارل مارتل وطرده للعرب من جنوب فرنسا، ثم حفيده شارلمان الذي حاول الاستيلاء على سرقة، ثم ابنه لويس، لمعاصر لعبد الرحمان الثاني الذي استولى على جزيرتي كورسيكا وسردينيا وجزر البليار القريبة، أي مزاحمة الأندلس من الشرق رغم ضعف قوة البحرية الفرنجية، فكان الرد هو ضرب المراسي التي ينطلق منها أسطول الفرنج كمرسيليا، ثم ضرب جزر البليار، فقبلت هذه التبعية للأمويين سنة 234 ، وستصبح تحت حكمهم المباشر منذ سنة

غير أن السواحل الغربية للأندلس ظلت مكشوفة بدون حماية، مما سهل على مجموعات النورمان المتبربرين "المجوس" أن تهاجم هذه السواحل وتحتل مؤقتا مدينة قادس ثم اشبيلية 230، هذا الهجوم جعل الأمير عبد الرحمان يبني سور اشبيلية ويجعل بها دارا لصناعة السفن، كما أمر ببناء المحارس و الرباطات على الساحل الغربي حيث تكون الحراسة دائمة، ولهذا تمكن ابنه محمد أن يرد النورماند عندما حاولوا الإغارة مرة أخرى حيث لم يستطيعوا الاستقرار بالأندلس على عكس ما حدث في إنجلترا وفرنسا، ولهذا يمكن اعتبار الأمير عبد الرحمن المؤسس الحقيقي للبحرية الأندلسية.

